

مراقب

لبنان والدولة العثمانية



$$\begin{array}{r} 120 \\ 80 \\ \hline 40 \\ 20 \\ \hline 20 \end{array} \quad \begin{array}{r} 25 \\ 25 \end{array}$$

30

30

1 45

$$\begin{array}{r} 70 \\ 45 \\ \hline 25 \end{array} \quad 25$$

60

$$\begin{array}{r} 170 \\ 25 \\ \hline \end{array}$$

$$\begin{array}{r} 80 \\ 25 \\ \hline 105 \end{array}$$

تجديد  
صالح النقر  
بيوت - المزرعة



CLOSED  
AREA

CA CLOSED AREA

956.9:K1821A

قرالبي، بولس .

لبنان والدولة العثمانية .

CA  
956.9  
K1821A

closed Area

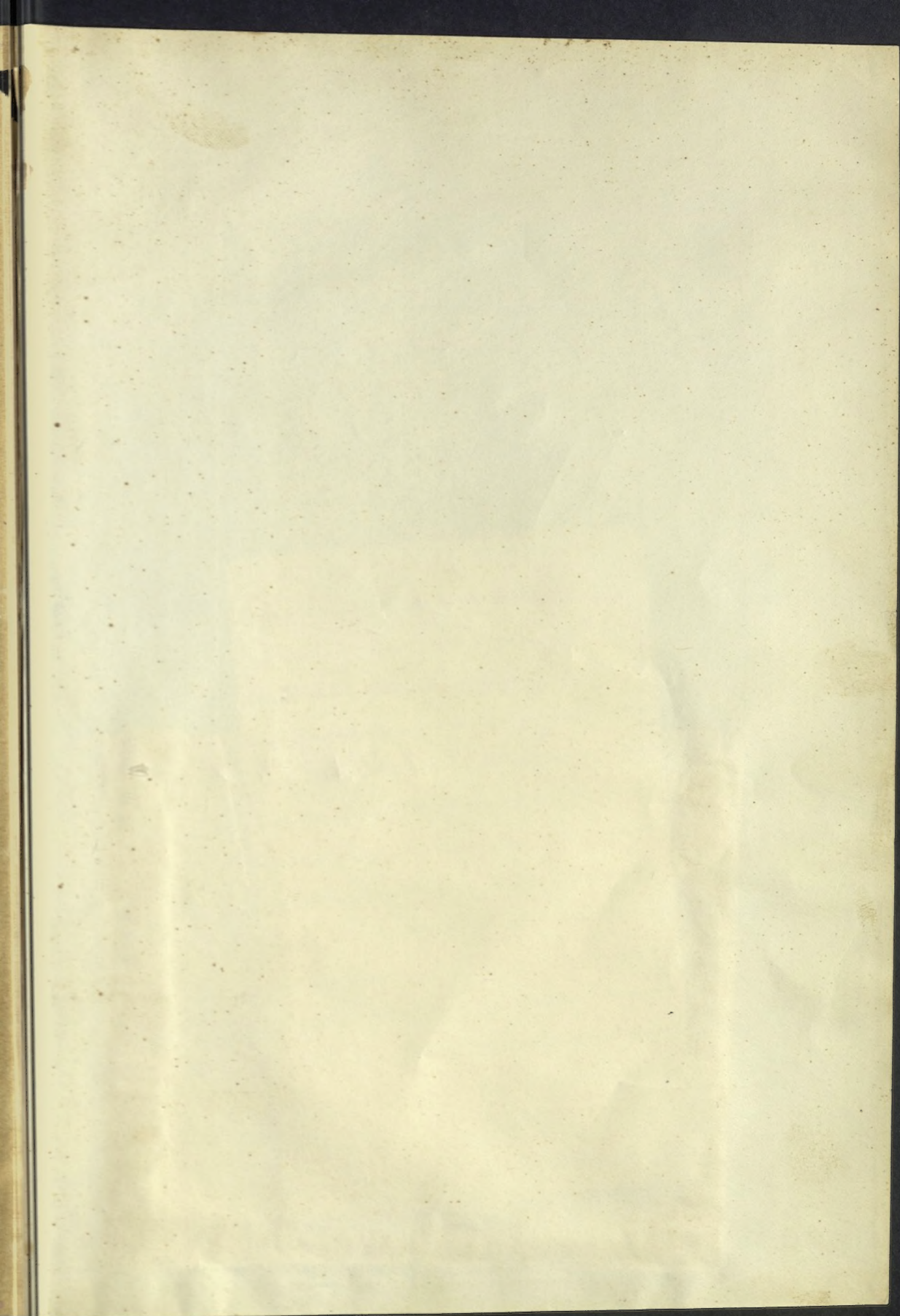
CLOSED  
AREA

AP16 '58

AP 30 '58

OC 1 '58

JUL 1974





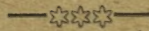
CA: 956.9

K182 PA

C.I

# لبناني والدولة العثمانية في عهد فخر الدين المعني الثاني

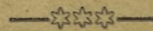
١٥٩٠ - ١٩٣٥



بقلم

المخوارسقف بولس قرالي

مدير المجلة البطريركية ومحررها



١٩٥٢

مطبعة مصر الجديدة

١٦ شارع دمنهور - مصر الجديدة



## كلمة للناشر

هذه خلاصة مقدمتنا على كتابنا «نصر الدين المعنى الثاني ودولة تسكانا» ، وضعناها خدمة للطلاب وتعميما للفائدة . وقد اهتمنا ذكر المصادر والمراجع ، زيادة في الايجاز . حتى إذا شاء الراغب في الاطلاع عليها ، أو التوسع في احد موضوعاتها ، فله أن يغترف بملء حفتيه من كتابنا المذكور في جزءيه الطلياني والعربي .

مصر الجديدة في ٧ تشرين الثاني سنة ١٩٤٨

انور اسقف بولس قرالى

( جميع الحقوق محفوظة للمؤلف )



## أقسام الكتيب

يحق للأمير نحر الدين المعنى الثاني أن يعد لحسن إدارته وسياسته مؤسساً لوحدة لبنان الحالية ونهضته القومية والثقافية ، وهو ما يحدونا إلى تنظيم كلامنا في فصلين :  
الادارة والسياسة :

### القسم الأول

## الادارة

### الباب الأول

#### الأفكار

من أمعن النظر في رسم الأمير الذي توجنا به كتابنا ، توسم فيه النجابة والشجاعة والحزم مقرونة بالدعة والحلم . وصفه أحمد الخالدي مترجمه ومعاصره بقوله « كان سليم الصدر . متواضعاً . بشوشاً شجاعاً حليماً عند الغضب . ما سمعت عنه قط الكلمة الفاحشة . يصغي إلى المظلوم فينصفه . ويعطف على الغنى كما يعطف على الفقير . وهو ربيع القامة . حنطي اللون ، مهاب ، جليل كريم . قوى العزم . شديد الحزم . يباشر بنفسه تدبير مملكته وضبط أموالها . مطيع لله وللسلطان » .

وصرح الأب روجيه Roger طبيبه الخاص بقوله « كان حاد البصر والفهم . شجاعاً لا يقهر . ميالاً إلى العلم متضلّعاً من معرفة النجوم والفلسفة الروحانية والكيمياء وعلم النبات . وكان يهوى تشييد القصور الفخمة والجنائن الغناء والقلاع الحصينة » .



وأكد كارلو ماشنجي Macinghi أحد أعضاء البعثة السكانية التي زارت لبنان سنة ١٩١٤ أنه « محبوب من رعاياه لعطفه عليهم وملاطفته لهم . ومهاب من أعدائه لأنهم خبروا فيه البأس والحنكة في الحروب » .

وكان وطنياً صمياً يفضل على نفسه مصلحة الوطن . ففي السنة ١٦١٣ وهو في طريقه إلى المنفى ودع رجال دولته بهذه الكلمة « إذا قدر الله ووقعت في يد الأتراك إياكم أن تسلبوهم القلاع حتى إذا تعهدوا لكم باطلاق سبيلى » .

وكان شهماً أبي النفس . عاد في السنة ١٦١٨ من إيطاليا مصحفاً على هلاك يوسف باشا سيفاً ، الذى سبب له النفي وحرقت في غيابه قصره في دير القمر ، وانتزع منه مقاطعتي كسروان والفتوح . قصد أن يباغته في عكار عاصمته انما أفلت من يده . بيد أن رجاله اسروا حريمه وحفيده . ولما بشروه بهذه الغنيمة أجابهم ردوا الطفل إلى والدته للفتها عليه . وتركوا الحرير وسبيلهن وأحاطهن فلا شأن لهن في هذا الخصام .

ولجأ اليه مرة أحد أعدائه فخماه من ملاحقة الأمير مدج . ولما طلب هذا اليه رأس اللاجئ لقاء مصاهرته ومبلغ كبير من المال أجاب الرسول : قل لسيدك . ان لم يكن فينا خير للتزبل فلا خير فينا للأمير .

## الباب الثاني

### العدل

« العدل أساس الملك » . كان الأمير نحر الدين يفهم هذه الحكمة بكامل معناها وممرها ، أى واجب صيانة كل فرد من رعاياه من التعدى على شخصه وماله وكرامته . كانت الفوضى سائدة في أنحاء الامبراطورية العثمانية . فقضى عليها في مملكته . وكان الظلم رائد الحكام العثمانيين فأحل محله العدل في الرعية . وكان الجيش العثماني يستبيح البلاد التي يمر بها فيمنعه الأمير بالمسال أو بالقوة من تخطي حدود دولته ، واثقاً أن رخاء رعاياه هو رخاء الدولة .

أما في القضاء فسار على خطة بسيطة رشيدة . احتفظ بالحكم في الجرائم وترك لرؤساء الطوائف والعشائر النظر في دعاوى رعاياهم المدنية والدينية .

نظم الفقر في جميع أنحاء مملكته الواسعة لتأمين السابلة وبنى الحصون والقلاع لمنع الغزو . حتى أن السائح الانكليزي سانديس Sandys الذى زار لبنان سنة ١٦١٠ كتب في رحلته



« يعامل الأمير بالحسنى جميع التجار من وطنيين وأجانب ويحميهم ويطلق لهم حرية التنقل ، فيمكنهم التجول بلا خوف في كل أنحاء مملكته والدراهم على أكفهم » وقال سانتى Santi رئيس البعثة السكانية المذكورة أعلاه « لم يتمكن الأتراك من اجتياح بلاده في الخمس والعشرين سنة التي حكم فيها » . اعتزم مرة الجيش العثماني العائد من العجم قضاء الشتاء في لبنان . فاستبقته إلى شمال طرابلس ووقف في سبيله . ولما شاء الدخول قاتله وقتل منه عدداً وافراً . ثم رشى قواده بمبلغ كبير من المال فتحول إلى دمشق وكبدها من الخسائر عشرة أضعاف ذلك المبلغ . كانت الطوائف غير المسلبة تعامل في الشرق معاملة الخدم والعبيد فلا يسمح لها بحمل السلاح للدفاع عن الوطن ولا ركوب الخيل ولا لبس الأبيض . وتدفع لخزينة الدولة جزية . وكانت أرزاق أفرادها وحياتهم تحت رحمة كل ظالم وطامع . ولما استعان الأمير بالموارنة لقهر ابن سيفا والذود عن لبنان والتبسط وراء حدوده رأى من الاجحاف الابقاء على هذه المعاملة المذلة فساوى في الحقوق والكرامة جميع رعاياه ومنح الجميع حرية العقيدة . فأزال بهذا التدبير الحكيم العلة الأولى للنزاعات الداخلية والتعديات والأطباع الفردية . واكتسب اخلاص العناصر المظلومة وثقة أمراء الغرب واحترامهم . ونشأ في مجموع الأمة تضامن أخوي في سبيل الدفاع عن الوطن الذي أصبح للجميع وأصبح الجميع له . فقام المسيحي يحارب بجانب المسلم والدرزي بالحماة عينها ويفدى وطنه بالمهجة والمال . وهذه المساواة لم تبخس المسلمين حقهم كمواطنين . فقد كان يراعيهم المراعاة كلها ويشيد لهم الجوامع والتكيات مع أنه درزي . ويشاركهم في أعيادهم وصلاتهم وينفذ أحكام مشايخهم ويعين الرواتب للوُذنين والعلماء والقدماء .

وخول اليهود الحماية والحقوق المدنية والحرية الدينية فكانوا عاملاً صالحاً في اقتصاديات البلاد . واتخذ منهم الكتبة والحسبة فنظموا حسابات الدولة وأشغاله . وشجع التجار منهم على العمل في بلاده . حتى قال عنهم سانتى في التقرير الذي رفعه للغراندوق قزما الثاني سنة ١٦١٤ « إنهم في لبنان أوفر جاهاً وثروة من المسيحيين » .

وولى عنايته طائفة الملكيين النازلين مقاطعات الكوره وطرابلس وعكار وساعدهم على الانتشار في بقية المقاطعات اللبنانية لاسيما في المتن ولبنان الجنوبي حيث نجد لهم حتى اليوم قرى ومزارع بجانب القرى المارونية ، وفي بعضها يعيش العنصران جنباً إلى جنب . ولما دب الخلاف بينهم بسبب بطريرك دخيل تدخل بنفسه ففضى على الخلاف واعتقل البطريرك المعتدى .



وبسط رعايته على الموارد وحالفهم ضد يوسف باشا سيفاً عدوه وعدوهم . فساعده على قهره . ولما انتزع منه مقاطعات جبة بشري وجبيل والبترون سلم زمامها إلى حكام من بنى مذهبهم ورفع عنهم الظلم وخفف عنهم الضرائب وترك للأديار نصف المال المترتب عليها ، واتخذ منهم القواد والمستشارين والسفراء . وساعدهم على استعمار كسروان وتعميره والانتشار في المتن والشوف والبقاع والسواحل . وحكى بطاريكهم يوحنا مخلوف لما لجأ إليه من جور ابن سيفاً وساعده ورعاياه على امتلاك قرية مجد المعوش في مقاطعة الشوف والاستقرار فيها قريباً منه .

واشتدت أواصر الاخاء بين الموارد والدروز فاتحدوا قلباً واحداً على تحرير لبنان وتوسيعه . فكتب الأب ماجرى المالطي في رحلته إلى لبنان سنة ١٦٢٤ يقول « بعد أن قتل ابراهيم باشا في السنة ١٥٨٣ ستين ألفاً من الدروز لم يعد الأمير يستطيع أن يجند منهم أكثر من اثني عشر ألفاً . بيد أن عشرين ألفاً من الموارد يحاربون تحت لوائه . وأكثر قواده منهم » .

وكان الشيخ أبو نادر الخازن على جانب عظيم من البأس والدهاء والوطنية فأسند إليه أكبر مناصب الدولة ، من رئيس الفرسان إلى حاكم بيروت وكسروان إلى قائد عام وأمين سر الدولة والمستشار الأول . ونفحه بلقب « أمير جبل لبنان » الذي كان محتفظاً به لنفسه . وقلد الشيخ يونس أبا ضاهر حبيش أمانة خزنة دولته ، وجعله كبير قوامه ، ومنحه لقب « أمير فلسطين » بعد أن ساعده الموارد على احتلال صفد والناصرة وطور طابور وطبرية .

وختم الدويهي كلامه عن فخر الدين بقوله « وفي دولة هذا الأمير ارتفع رأس النصارى وعمرروا الكنائس والأديار وركبوا الخيول بسروج ولفوا شاشات بيضاء ولبسوا طوامين وزنانير مسقطة وحملوا القسي والبنادق الجوهرة . وقدم المرسلون الافرنج وسكنوا الجبل وكان أكثر عسكره من النصارى ومدبريه وخدمه موارد » .

والحق يقال ، إذا كان فخر الدين مديناً للموارد بالقسم الأكبر من مجده فهم مدينون له بنهضتهم القومية والدينية والثقافية .

وكان الأوربيون يلقبون الأمير بحامي النصارى لعطفه عليهم سواء كانوا عابرين المستقيمين في دولته ، تجاراً أم رحالة أم أسرى . وكان يستفك أسراهم ويستخدمهم في أعماله



الفنية . وإن رغبوا في العودة إلى بلادهم أعادهم على نفقته . وقد يقدم عدداً من هؤلاء الأسرى على سبيل الهدية . وهو الذي صرح في كتابه إلى سفير فرنسا لدى الفاتيكان بأنه لا يمر بمملكته مسيحي دون أن يلقي منه الحماية والعطف والمساعدة . وصرح البابا أوربانوس الثامن في إحدى براءاته « أن لبنان قد أصبح بفضل الأمير نجر الدين الميناء الأمين الذي يلجأ إليه المسيحيون في الشرق إذا عصفت فيهم أطماع الأتراك »

ونال المرسلون منه الرعاية كلها ، للآمال الكبيرة التي كان يعلقها على رسالتهم في منفعة بني وطنه الأدبية والسياسية . ففي السنة ١٦٣٠ رافق بنفسه الآباء الفرنسيسكان حتى الناصرة حيث سلمهم دار السيد المسيح ونقدمهم مالا لاصلاحها والاقامة بجانبها . وأوصى فيهم الأهالي خيراً ووعد كل أسرة منهم بزوجين من الأبقار إن أحسنت معاملة المرسلين .

فاستوطنت بالناصرة أسرة يمين المارونية الاهدنية ومن فروعها أغلب الأسر اللاتينية والمارونية في مدينة المسيح . ووهب هؤلاء الرهبان أيضاً أربعة أديار آخر في عكا وإصيدا ولبنان الشمال . ونزل عند رغبة الدولة الفرنسية فساعد الآباء الكبوشيين الفرنسيين على الاستقرار في بيروت وعلى تأسيس مدرسة عامة ومطبعة تنشر المؤلفات في شتى اللغات الشرقية . وقدم لهم الموارنة كنيستهم ودار الأسقفية في هذه المدينة ودير آ في عينطورين ووضعوا تحت تصرفهم كنائسهم في دمشق وحلب للتبشير والدعاية الكاثوليكية . وشيد لهم الأمير داراً عظيمة في صيدا جلب إليها الماء العذير من مسافة بعيدة . وأذن للآباء اليسوعيين في دخول الناصرة والاقامة فيها .

وساعد أيضاً الآباء الكرملين على الاقامة في لبنان فسكنوا وادي قديشا تحت بشري . وسار خلفاؤه على هذه الخطة الرشيدة حتى أصبح لبنان مركزاً خاصاً لعدد وافر من الرهبانيات الغربية رجالاً ونساء . فاستفاد منهم وأفاد الشرق كله .

وهكذا تسنى للأمير أن يساوى بين جميع رعاياه ويؤلف قلوبهم وينفخ فيهم روح التآلف والتضامن والوطنية الحقة ، التي أوقفت عند قدمي جبلهم الأشم كل تعد غريب ، كما تتكسر الأمواج الصاخبة على صخور سواحله . قال الأب هنري لامنس في تاريخ سوريا « بعد وفاة الأمير نجر الدين عادت الولايات السورية التي كان يحكمها إلى النير العثماني . أما لبنان فحافظ على فكرة الاستقلال التي كوَّنها الأمير في أذهان رعاياه » .



وعمرت البلاد وأخصبت الأراضى واحتلت معاهد الدين والعبادة والعلم هضاب لبنان وأوديته وسهوله وسواحله . فكانت فيه مبعثاً للحياة الروحية والأدبية والزراعية والصناعية والوطنية . وجرف تيار المسيحية حكامه من آل شهاب المسلمين وأبى اللمع الدروز وآل حروفش الشيعيين فتنصروا . وأصبح لبنان بفضل الأمير معقلاً للكنيسة في الشرق الأدنى .

### الباب الثالث

#### الزراعة

الزراعة والصناعة ثديا الوطن

عنى الأمير العناية كلها بترقية وإنماء الزراعة وتربية المواشى والدواجن ونشط الصناعات الناتجة عنها ، ونظمها على أتن الأساليب وأوفرها مورداً . روى الخالدى أن أعداء الأمير لما أرادوا اغراء نصوح باشا على اجتياح بلاده قالوا له « إن بلاده عامرة وأهلها مشكارة وأنه يحصل منها أموال جمة » .

وهذا ما أطمع بها الأمراء جيرانه فاشتركوا في الحملة عليه سنة ١٦١٣ ، حتى بلغ رجالها أربعة وثمانين ألفاً . وبعد أن اجتاحت الحملة قسماً من البلاد ونهبتها قال الخالدى « ومع ذلك كان الرخاء موجوداً والغلال في القرايا بلا حد ولا قياس » .

ولنمر الآن سراعاً بالموارد الزراعية التي صرف الأمير همه إليها .

كان الحرير موضوع عناية نفر الدين الخاصة ، فأصبح الأول بين المنتجات اللبنانية وعاش لبنان من مورده أكثر من ثلاثمائة سنة . روى البطريرك الدويهي أن الأمير لما تسلم طرابلس « غرس في مغرقها أربعة عشر ألف نصبة توت ونصب بستاناً أكبر في أراضى الحيفة » . وتلشيطاً لزراعة أشجار التوت خفض الأمير عنها الضرائب إلى النصف في كسروان وشجع موارنة الشمال على النزوح إلى بقية المقاطعات اللبنانية لاصلاح أراضيها واستثمارها . ولم يمض وقت طويل حتى تمكنوا بكدهم وذكاهم من تحويل جبالها العارية إلى رياض معلقة وأوديتها الوعرة إلى جنائن غناء . وكانوا من أمهر مربى دودة القز فنشروا أساليب تربيتها في لبنان وفي بعض أنحاء سوريا وقبرص . وفي أوائل القرن التاسع عشر استدعاهم محمد



على باشا فدر بوا المصريين على طرق الاستفادة منها. وذكر مونتر الهولندي Münter في تقرير قدمه إلى الغراندوق فردنان الأول سنة ١٦٠٥ أن « زهاء خمسمائة أسرة وصلت أخيراً إلى جزيرة قبرص من سوريا للاشتغال في تربية دودة الحرير ».

وقام الأمير بالدعاية في أوروبا للحرير اللبناني. فكان يهدى منه إلى ملوكها وأمرائها وكرادتها. فأعجبوا من جماله ومئاته وألوانه الزاهية الذهبية أو الفضية وأخذت مراكزهم تقصد بالعشرات إلى الثغور اللبنانية وتشتريه بأعلى الأثمان وتحمل منه القناطير.

وكان الأمير يقايضهم عليه بوارداتهم من أقشة وآنية وأسلحة وذخائر ويستخدمه أيضاً في تسديد الأموال الأميرية والديون التجارية.

ففي السنة ١٦٢٩ ابتاع بالحرير حمولة خمسة مراكز مشحونة أقشة تسكانية. وفي السنة ١٦٣٢ بعث إلى ليفورنو بخمس وأربعين بالة من الحرير البيروقي الأبيض وأوعز إلى وكيله العلامة ابراهيم الحاقلائي أن يبيعه ويودع ثمنه مصرف جبل الرحمة في هذه العاصمة باسمه واسم أولاده الثلاثة الصغار. وفي السنة ١٦١٤ قدر سائق رئيس البعثة التسكانية رسوم الحرير بثلاث أيراد الميزانية اللبنانية.

وقال في التقرير عينه « إن بلاد الأمير غنية بالحرير والزيت والقطن والعسل والشمع والقمح والحبوب ورماد الزجاج والكبريت وكل ما يشتهي الإنسان من أصناف الطعام ».

ويشغل الزيتون حتى اليوم المقام الثاني من الموارد اللبنانية. وقد شجع الأمير شجرته القنوع الوديع الصبورة الدسمة فجاءت مورداً هاماً لرعاياه ولخزنته واتخذ اللبناني الزيتون رفيقاً لكسرة خبزه إذا فاته البصل. واستعاض بزيته عن السمن في الطبخ والتوابل. لأن جباله لا تصلح لغير المعزى. فأصبح الزيتون عاملاً للاقتصاد والثروة. وهو من أجود الأصناف في العالم وألذها طعماً، زيتاً وجباً.

ناهيك عن صابونه فقد اكتسب الشهرة العالمية بنقاؤه وجودته. فكان الأمير يصدر منه سنوياً عدة مراكز إلى الاستانة هدايا للسلطان ووزرائه ودعاية له في السوق. فكان يباع هناك بأعلى الأسعار.

ومن الغرائب التي شاهدها الأب دنديني في لبنان سنة ١٥٩٦ قافلة محملة رمالاً مستخرجا



من حشيشة لبنانية يحرقونها . فكانت المراكب الأوربية تحمل منه كل سنة القناطير المقطرة لاستعماله في أنقى أنواع الزجاج وأخضر أنواع البلور . وكان للبناطقة المشهورين بهذه الصناعة ولع خاص بهذا الصنف من الرماد بلغ بمصنوعاتهم شهرة عالمية .

وكان القصب في عهد الصليبيين يعد في مقدمة المنتجات اللبنانية وكانت معامل السكر منتشرة في سواحل لبنان لاسيما في صور وطرابلس . فيصدر منه إلى الخارج كميات كبيرة . فشجع الأمير متوجه كما عني بزراعة القطن الذي كان يتهافت على شرائه تجار الغرب . ومع أن لبنان يشتري الآن ثلثي حاجته من القمح فقد كان الأمير يصدر منه كميات كبيرة تفيض عن مقطوعية البلاد . ذكر الدويهي ورود مائة مركب من أوروبا إلى ميناء عكا التابعة عندئذ للبنان لشراء القمح ، ساعدها الأمير على شحنها إنما بأسعار عالية عادت بالأرباح الجيدة على التجار والفلاحين .

ولم تكن زراعة الكتان معروفة في الشرق ولما شاهدها الأمير في تسكانا عمل على تنميتها في لبنان . وفي السنة ١٦٢٩ أصبح الكتان من صادرات اللبنانيين .

وعني بزراعة الليمون على اصنافه في السواحل اللبنانية فاصبحت متمنطقة بحزام أخضر يزهر على زرقة البحار . وكان بستان الليمون في قصره ببيروت مضرب الأمثال . وصفه السائح موندل الانكليزي في رحلته وصفاً يثير الإعجاب لتنسيقه ونمائه كما وصف غيره تنسيق غابة الصنوبر شرق بيروت . فقد كلف هذه المهمة مهندسين بارعين طلبهم من صديقه الغراندوق .

وشملت عنايته الخضار أيضا . وقد استجلب من تسكانا بذور أجود الاصناف وأغربها لاسيما الخس الافرنجي والهندباء والقرنيط والبالزلا والبندورة .

وكان مولعاً بدرس النباتات حتى أنه كلف رساما فرنسويا فرسم له ألفا وخمسة صنف بالألوان الطبيعية ، فكافأه على عمله مكافأة حسنة .

واهتم الاهتمام كله بتحسين نسل الأبقار الصالحة للفلاحة والجوادة بالالبان فاستقدم من تسكانا أزواجا من أجود أنواعها .

فكتب ماشنجن في تقرير السنة ١٦١٤ إن موارده من غير الرسوم والضرائب ناتجة عن



استثمار مساحة كبيرة من الأراضي الزراعية لحسابه الخاص وتربية كمية كبيرة وافرة من الأبقار بالشركة مع الفلاحين . ورغبة في تلقين الفلاح اللبناني أصول الزراعة وأقرب الوسائل لاستثمار أراضيه وتربية المواشي والدواجن ، سأل الفرانديك أن يبعث إليه ببضع أسر من فلاحين تسكانا معاهداً إياه على رعايتهم وتقديم نفقات سفرهم وتعيين رواتب مغرية لهم . وسأله أن تستجاب كل أسرة أحدث أدوات الزراعة والفلاحة الدارجة في تسكانا وأجود أصناف الأبقار والدواجن .

واسمى أيضاً بعنايته في تحسين نسل الخيل . وكان يقتنى من أصدقائه مشايخ القبائل الأصائل الشهيرة ويهدي من نسلها إلى الملوك والأمراء . وقد بنى لها في قصره ببيروت اصطبلات نفمة وصفها السياح وصفاً يثير الإعجاب . وقد شاهدناها بنفسنا في السنة ١٩٣٣ غرب السراي الصغير حين كانت تعمل في هدمها يد الجهل لتستعويض منها بأعمدة من الأسمنت المسلح .

وكان مولعاً باقتناء الكلاب . فسأل الفرانديك أن يبعث إليه بزوجين من أشهر الأصناف لاستخدامهم في الصيد والحراسة أو للتسلية في المنازل .

هذه العناية جعلت من لبنان على وعورته جنة عدن فبلغت موارد مزروعاته أضعافاً مضاعفة عما كانت عليه قبلاً وتمتع سكانه بالرخاء والبجوحة وهناء العيش .

## الباب الرابع

### التجارة

ظهرت مواهب نغرا الدين ظهوراً لامعاً في السياسة التي اتبعتها لتنشيط التجارة في مملكته . فقد نشر الأمن براً وبحراً ، وخولهم من التسهيلات والميزات والحصانات ما استطاع إليه سبيلاً ، وإذا بصيدا وصور وبيروت وجبيل وطرابلس ، قواعد فنيقية الساحلية وعواصم العالم القديم التجارية تستفيق من السبات ، الذي أقعدها منذ هجرها الصليبيون في القرن الثالث عشر فتشاهد بارتياح مراكب البندقية وبيزا وجنوا ومرسيليا الأوربية ، وتونس والجزائر



ومراكش ومصر الافريقية ، والبحر الاسود والارخبيل التركية ، عائدة إليها ، مرفقة بأجنحتها البيضاء على سواح بحارها الزرقاء الزاهية ، مثقلة بالاقشة والادوات والمعادن والنقود الأجنبية ، حاملة منها المتوجات الوطنية .

لم يصب جبل لبنان ، المنتصب أفقياً فوق البحر المتوسط ، من الأراضي الزراعية سوى شقة ضيقة تكسحت بين قدميه و « فقس الموج » . بيد أن الخالق حبا ساحله بسلسلة أنيقة الحلقات من خليجان ظريفة هادئة ؛ استخدمها الفينيقيون ملاجئ آمنة للمراكب من العواصف الهوجاء . وحبا أهله ذكاء ونشاطاً وشجاعة استعاضوا بهما عما حرمتهم الطبيعة . فكانوا أول من ركب خشبة شقوا بها غير هيا بين عباب البحر المعربد المتلاطم . جابوا على ظهرها النحيل البحر الأبيض كأنه بركة . وأنشأوا لهم في السواحل البعيدة عن بلادهم مستودعات ما عثم أن تحولت إلى مستعمرات زاهرة ، استقر فيها تجارهم وعملآؤهم . مثل قرطاجنة في أفريقيا ، وقادس في إسبانيا ، ومسينا في إيطاليا ، ومرسيليا في فرنسا . واقتحموا مضيق الدردنيل شمالاً إلى البحر الأسود وجالوا في شواطئه . وأنشأوا لهم فيها الخانات والمخازن . واجتازوا مضيق جبل طارق وداروا حول القارة الافريقية جنوباً وبلغوا غرباً حتى أميركا الجنوبية . وخذقوا صناعات الفخار والمعادن والاقشة الفاخرة كالارجوان . واستنبطوا حروف الكتابة وأرقام الحساب واستخدموها لأعمالهم ونشروها في الاقطار القديمة . فأصبحت شقة الساحل اللبناني على ضيقها محور الحركة التجارية والثقافية في العالم القديم .

ولم تكسف الطبيعة أن تحجز بينهم وما وراء البحار من الاقاليم ، بل وقفت قم لبنان الشاهقة ، وغاباته الكثيفة ووعوره وثلوجه سداً عالياً بينهم وبين سهول البقاع وسوريا وما إليها . على أن همهم كانت أرفع من ناطحات السحاب وأصلب من الطبيعة . فشقوا إليها الطرق ، مكسحين الغابات بمهدين الوعور ، دائسين رؤوسها الشائخة وثلوجها . فاتصلوا ببقية المعمور .

بيد أن خمر الدين لما تولى زمام لبنان وجد ثغوره راقدة منذ ثلاث قرون رقاداً أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ، وقد بقي لطرابلس وحدها بقية من الحياة بفضل التجار الأوربيين خاصة البنادقة ، الذين اتخذوها ميناء لحلب ، قاعدة التجارة في آسيا . فانتقل قناصلهم من دمشق إلى الفيحاء في العام ١٥٤٥ . وبعد ثلاث سنين استقروا في حلب نفسها وأبقوا على



طراباس وكلاء لتسلم البضائع ونقلها . وما زالوا على ذلك حتى أوائل القرن السابع عشر ، حين اضطروهم يوسف باشا سيفاً بجشعه وعسفه إلى استبدالها بخليج الاسكندرونة . فقد صادر مرة في غليونين فرنسوين ثمانين ألف غرش ، فضلا عن البضائع التي كانت تحملها . وقتل تجارها وباع بجاتها كأنهم أسرى . على أن التجار الأوربيين الذين نزحوا من طراباس إلى الشهباء أمسوا فيها « كالمستجير من الرمضاء بالنار » . لأن ولايتها لم يقلوا جشعاً وظلماً وقسوة عن سيفا باشا .

فأدرك نفر الدين أن الفرصة مواتية لاجتذاب التجار الحائرين الخائفين إلى ثغوره ، فيستفيد من خبرتهم ورؤوس أموالهم وعملاتهم ويروج محصولات بلاده فرسم لنفسه خطة رشيدة سار عليها حياته كلها ، وهي حماية التجار بحراً من القرصان وبراً من اللصوص ، وتسهيل معاملاتهم وتنقلاتهم ، وتخويلهم ما أمكنه من الرعاية والميزات .

فأى مركب قصد إلى ثغوره حق له عليه الحماية . لم يكن لديه أسطول يحميه ، إنما لم يعدم وسيلة للوصول إلى معاقبة من يتعرض له . فكان يحرم القرصان الأوربيين ميزة اللجوء إلى موانئه هرباً من الأسطول العثماني ويحرمهم أيضاً حق التوأم منها والتعامل معها . بل كان يلاحقهم وينزل بهم أشد العقاب إذا وقعوا بين يديه . فان لم تظلم يده في بلاده طالتهم في بلادهم . فقد كان يشكوهم إلى أسيادهم ويتشدد في طلب معاقبتهم . وكان عواهل الغرب مضطرين إلى استجابته إن لم يكن بداعى الصداقة فلحماية مصالح بقية مراكبهم ورعاياهم في بلاده .

في السنة ١٥٩٤ لما صارت إليه صيدا استقر فيها واتخذها عاصمة لمملكته ومنفذاً لمحصولاتها وقاعدة لسياسته التجارية . وجاهد في سبيل ترقيتها حتى أصبحت من أكبر الموانئ التجارية في البحر المتوسط .

وبعد عودته من إيطاليا تركها لولده الأمير على وسكن بيروت حيث نجده مقبلاً في أوائل السنة ١٦١٩ . وعكف على عمارها وانهاض تجارتها . وفي السنة ١٦٢٢ شيد فيها قصره الشهير وبعد عشر سنين أقام في إحدى زواياه برج الكشف الذي اتخذت ساحة البرج اسمها الحالي منه وجعل ارتفاعه ستين قدماً ليكشف منه على السواحل والبحار ويراقب حركات المراكب والقرصان . وأوعز إلى عماله أن يعنوا بحماية المراكب والتجار حتى أن قلعتيه في



صيدا رمت مرة على إحدى سفن القرصان الفرنسيين سبعين قنبلة من المدافع لتردهم عن السفن الاوربية في مينائها .

ولم يكن يسمح حتى لأصدقائه أن يعشوا بسواحله . ومع أنه كان صديقاً حميماً للفرسان مالطة ، الذين استقبلوه وهو عائد من بالرمو استقبال الملوك ، فقد صادر قاريين من قرصانهم كانوا يأسران التجار المسلمين . استخدمها بعدئذ في نقل جنوده وذخائره على السواحل اللبنانية . وشهد شيفرانو قنصل البندقية في حلب أن « الأمير دأبه حماية التجار من تعدى القرصان وترغيبهم في الانتقال إلى ثغوره »

هذا في البحر ، أما في البر فكان إذا وطىء التاجر أرضه شعر حالاً بحمايته وعطفه . فقد نشر في طول مملكته وعرضها القلاع والحصون والمغافر والخانات المحصنة المجهزة بالجنود والماء والزاد لنزول القوافل والمسافرين . فضلاً عن الخانات التي أقامها في الثغور لنزول التجار وتخزين بضائعهم ، كمخازن الفرنسيين الشهيرة في صيدا .

ولما علم أن اللصوص اتخذوا مكاناً قريباً من صفد مربطاً لهم شيد في المكان عينه خاناً محصناً أقام فيه الحرس من الجنود . وقصد إليه بنفسه ليتأكد من انجاز أوامره فوجد السور لم ينجز بعد . فضرب خيمته بجانبه وظل شهراً كاملاً يبحث العمال على اتمامه والحمى تأكل أضلاعه . ولم يذق طعم الراحة إلا بعد أن أكمله .

هذا فضلاً عن الطرق التي فتحها والمعابر والجسور التي مدها تسهيلاً للواصلات . وقد اعتمد على المهندسين التسكانيين لانجاز هذه الأعمال طبقاً للأصول الهندسية .

وكان شديد الوطأة على المتاجرين بالنقود المزيفة . فيصادرها منهم ويعاقبهم أشد العقاب ويشكوهم إلى رؤساء دولهم . ولما لم يكن يسك النقود خوفاً من السلطان ، كلف صديقه غراندوق تسكانا ضرب نقود صحيحة من أرباع القرش لقيت رواجاً كبيراً في أسواق الشرق . وتسهيلاً للعاملات وترويجاً لمنتجات مملكته . كان يذهب أحياناً إلى اقراض التجار الأجانب نقوداً لا كإل شحن مراكزهم .

فتكللت هذه السياسة الرشيدة بنجاح باهر ، عاد عليه وعلى لبنان برحاء فريد في تاريخه . فكان تجار البلدان المجاورة يتركون مراكز أعمالهم ويقصدون إلى ثغور لبنان ، فتتخذى



خزنته برسوم بضائعهم ، ويحصل سكانه على حاجتهم من هذه الواردات بأسعار متهاودة . وقد يعيدون تصديرها إلى جيرانهم في الشرق الأدنى ، فيجنون منها الأرباح الطائلة .

وقد شهد المعاصرون من رحالة وقناصل وتجار للامير بحكمته وسياسته التجارية . ففي تقرير رفعه سنة ١٦٢٤ شفرانو Civrano قنصل البندقية في حلب إلى رئيس جمهوريتها كتب ما يلي : « أتوقع في القريب العاجل تقهر رعاياكم في هذه المدينة لجشع واليها في ابتزاز أموالهم مما حمل أغلبهم على تصفية أشغالهم والانتقال إلى صيدا ، حيث يلقون من الأمير شرف الدين حسن المعاملة والتشجيع . ولما كان دأب هذا الأمير حماية المراكب أيضاً من القرصان فقد راجت التجارة في بلاده رواجاً كبيراً ، وعادت عليه بالأرباح الطائلة . وينتظر أن تزداد حركتها يوماً عن يوم فتعطل على تجارة حلب تعطيلاً محسوساً . »

ولما شاهد غراندوق تسكانا أن تجارة بلاده مع لبنان تنمو نمواً مطرداً بفضل مساعدة الأمير لوكلائه ، عين في صيدا قنصلاً دائماً يدعى فرنسيس دافرتسانو Da Verrazzano ليسهر على مصالحه ومصالح رعاياه ويسعى في تنميتها .

وقد ذكر هذا القنصل في تقاريره بين صادرات صيدا القمح والارز وأصناف الخبز الاصفر والابيض وبعض الاقمشة المستخرجة منه لا سيما الدمقس . وذكر أيضاً الصابون والصوف والكتان والقطن الخام والمغزولات ، فضلاً عن الصمغ العربي والزاج . وعد بين واردات تسكانا الاقمشة على اختلاف أنواعها وفي مقدمتها الاجواخ والمحمل والقرمز والحرائر على اختلاف قياساتها وألوانها وأشكالها . والورق من خشن وصقيل ، والاقداح والصحون والدوارق وشتى المصنوعات البلورية والزجاجية خاصة عيون التوافذ المستديرة . ثم قضبان الفولاذ والسلاسل والاشرطة والمسامير والامواس والسكاكين وأدوات المطبخ والشماعدين والقبعات وأنواع العطارة والاجراض الصغيرة .

فضمنت هذه السياسة لميناء صيدا رخاء قرنين وانوف حتى أن ميزانية التجارة الفرنسية في هذا الثغر اللبناني تجاوزت سنة ١٦٧٠ مليوني ليرة ذهبية



## الباب الخامس

### سياسته المالية

إن جهود الأمير في توطيد دعائم العدل ونشر لواء الأمن ، وتنشيط التجارة والصناعة ، أغدقت الخيرات على شعبه والاموال على خزينته . وضمانا لهذا الرخاء وضع نظاما دقيقاً لقيد الاموال الاميرية وجبايتها وتوزيعها على المنافع العامة . وكان يتشدد في تحصيلها .

أكد لنا الاب روجيه طيبيه الخاص أن « الأمير كان مطلعاً على جميع شؤون البلاد وأشغالها الهامة ، وعلى أحوال رعاياه المالية . فكان يعرف بدقة أسماءهم وألقابهم وثروتهم . وكان لديه سجل يحوى أسماء جميع الرجال القادرين على حمل السلاح وآخر يقيد فيه الاشجار المثمرة التي تحصل الاموال الاميرية بنسبتها ، وثالث يدون فيه عدد الابقار والمعزى التي تلحقها الضريبة »

واعلمنا الخالدي أنه كان « يباشر تدبير مملكته بنفسه ويضبط أموالها ويتقن أمورها بقوة حدسه . وكان قوى العزم شديد الحزم حسن التربية » .

هذا التدبير يظهر لنا الآن عاديا ، ساريا في كل دولة منظمة . بيد أنه في عهد الأمير ، لاسيا في الدولة العثمانية ، كان النظام مستحدثاً ، غريبا . ولنمر الآن بأبواب ميزانيته واحدا واحدا .

كانت الاموال المحصلة من رسوم الجزية أهم الابواب التي تدر المال على  
١ — الدخل  
خزينته فضلا عن رسوم المواشى والاشجار والجمارك .

حرم الشرع الاسلامى على النصارى واليهود الخدمة في الجندية . أى شرف الدفاع عن الوطن ، وعدهم « مادة المسلمين » . ففرض عليهم جزية سنوية يؤديها كل رجل يافع منهم .



وقد أفادنا الرحالة سانديس ، الذي مر بـ لبنان سنة ١٦١٠ ، أن الأمير كان يتقاضى سنوياً من كل مسيحي ويهودي ريالين في السنة .

وأكبر الظن أن الأمير كان يعنى المسيحيين المجندين في جيشه من الجزية لأنها فرضت عليهم بدلا من الخدمة العسكرية .

وجاء في تقرير سانتي المحرر سنة ١٦٢٤ « يتقاضى الأمير رسماً عن كل رأس من البقر والجواميس والجمال والمعزى التي يسلمها إلى الفلاحين ، على أن تكون جلودها له . وإن نفقت فعليهم . وقال سانديس « يجبي الأمير من كل شيء خمسة » .

ولما كانت ضريبة الارض تجبي على الاشجار المنتجة جاء لتلشيط الأمير لنصب التوت والزيتون موردا وفيرا للبلاد وللخزينة العامة . قال سانتي في تقريره المذكور « الاراضى كلها ملك الأمير يسلمها إلى الفلاحين ليستثمروها على أن يؤدوا له ثلاثة ريالات عن كل مئة نصبة توت ، ومن الحرير والقطن ثلثه ، ويقدر دخله من التوت والحرير بثمانين ألف غرش ومن الخمر والزيت بخمسين ألفاً .

وعلمنا من الاب زوجيه أن « نصارى لبنان الشمال كانوا يؤدون إلى والي طرابلس اثني عشر غرشاً في السنة رسم جزية الرأس عن كل منهم ، ليحوز لهم العيش حسب شريعتهم حتى إذا بلغ الحدث الرابعة عشرة أدى فرنسكين وزاد كل سنة فرنكا إلى أن تبلغ جزية رأسه ستة فرنكات . ولقاء هذا كل مسلم يمر بجبل لبنان كان مفروضا عليه أن يؤدي لحاكمه نصف فرنك عن نفسه ونصفاً آخر عن حولة كل بغل أو جمل » . ثم زاد يوسف سيفاً الضرائب زيادة فاحشة حتى ضج الرعايا من الظلم .

وفي السنة ١٦٢٠ ، لما نزع الأمير نقر الدين مقاطعة جبة بشرى من يد يوسف سيفاً ولى عليها الشيخ أبا صافي الخازن وخفف عن أهلها الاثقال التي كانوا يرزحون تحتها .

وهاك مادونه في هذا الصدد البطريرك اسطفان الديوس في نبذته عن مقدمي جبة بشرى بعد استيلاء الأمير عليها « وكثر الامان والعدل في الجبة وفي كل اياالة طرابلس . لان الأمير نقر الدين حرر على رأس الفسلاح اثني عشر قرش ونصف . ومثلها على الفدان . وأما على مائة التوت جعل في معاملة طرابلس قرشين لاغير وفي كسروان قرش ونصف الربع



والجالية على رأس الغريب قرشين ونصف الربع . ومثلها على مائة المعزة وعلى حجر الطاحون وعلى دولاب الخلاه . وان الديورة تعطي نصف خراج لا غير . وكان مال الجبة أربعة آلاف . وأفادنا سائق عن رسوم الموائى اللبنانية ان كل مركب يرسو فيها كان يؤدى رسماً قدره ١٥ غرشاً وكل عشر لبرات من الحرير والقطن تدفع ربع سكوت . أما البضائع التى تمر بهذه الموائى فى طريقها إلى دمشق أو منها إلى المدن والموائى فتدفع رسوماً باهظة . وأعلننا ساندیس أن « الامير كان يتقاضى من التجار ثلاثة فى المئة » .

وقدر سائق دخل الأمير سنة ١٦١٤ بـ ٣٠٠ ألف قرش . وقدرها دهائى Dëshayes السفير الفرنسى فى السنة ١٦٢٤ بتسعمائة ألف فرنك ذهب وأوصلها الأب روجيه فى السنة ١٦٣٢ إلى مليونى فرنك ذهب . وهذا شاهد على نجاح سياسة الأمير المالية نجاحاً فريداً فى تاريخ لبنان .

كانت أهم أبواب الخرج الجيش والاشغال العامة والادارة .  
١ — الخرج — كانت أراضي الولايات العثمانية معدودة كلها ملكاً للسلطان ولم يكن حكمها من ولاية وسناجق ومقدمين سوى ضامنى أموالها . فكانت سلسلة الضمان تبدأ بالفلاح الذى يستثمر الأرض بعرق جيبيه ، وتنتهى بالسلطان مالكها الاوحد . أما فى لبنان فامراؤه كانوا يتوارثون ضمانه ، ويستقلون بادارته والنفقة على جيشه وصيانة عبادته والقيام بالاعمال العمرانية .

وكان الأمير يسدد الأموال الأميرية فى مواعيدها . وأحياناً يسبقها ليعبد عن لبنان عين الباب العالى ورجل رجاله وجيشه ، ويبعد عن نفسه الشبهات الحائمة حول طموحه إلى الاستقلال وعلاقاته بالدول الأوروبية المعادية للسلطان .

أما مقدار المال الذى كان يقدمه سنوياً إلى السلطان فيتراوح بين ستين ألف سكوت وثلثمائة وأربعين ألفاً تبعاً لاتساع مملكته المطرد . وقد « بلغت مملكته فى السنة ١٦٣٢ سبعة أثمان ما كانت عليه فى السنة ١٦١٣ » . كما شهد القنصل دافرتسانو .

٢ — الجيش — قدر ماشنچى جيش الأمير سنة ١٦١٤ بعشرين ألفاً فى وقت الحرب . أما فى زمان السلم فافادنا سائق فى تقرير السنة عينها أنه يبقى تحت السلاح



والسائس . وانه كان يقدم الطعام لحراس القلاع ورواتب باهظة لقوادها . فضلا عما كان يوزعه على المحاربين عقيب انتصاراته العديدة .

ولما كانت حروبه متواصلة قرر أن يلزم كل لبناني مهما كان مذهبه بحمل السلاح والدفاع عن وطنه . حتى إذا نفخ النفير جمع كل أمير أو شيخ رجاله تحت راية خاصة ، وقام بالمهمة التي يعهد إليه الأمير بها . وبعد انتهاء الحرب يعود المحاربون كل إلى بيته وعمله .

وهكذا اشترك المسيحيون في الجندية التي كانت محرمة عليهم في بقية الولايات العثمانية . وقد عين أبا نادر الخازن قائدا للفرسان ، ثم قائدا عاما للجيش اللبناني . وما زال هذا النظام قائما في لبنان حتى دستور السنة ١٨٦١ .

وكان الأمير يستعين عند الحاجة بخلفائه من شيوخ القبائل العربية الضاربة حول لبنان وكثيراً ما كان يستخدم الجنود المأجورة .

أما في الولايات العثمانية فكانت نفقة الجيش تجمع من أهالي البلاد التي ينزل فيها وهو ما كانوا يسمونه بالقشاق . فتوزع نفقاته على البلاد بنسبة ثروة كل منها .

٣ - المصالح العامة كان الأمير ينفق من خزينته على الإدارة والاشغال العمرانية من أقنية الري وطرق وجسور وسدود وقلاع وحصون وأسوار وأبراج وموانئ وحراسة البحار . حتى على الأسواق التي تقام لتبادل السلع والمحصولات وعلى الخانات التي ينزل فيها التجار والقوافل كما رأيت . فضلا عن التصور والجنائن التي كان ينشئها لسكنه ولإقامة حكام دولته .

أما في بقية الولايات العثمانية فكانت النفقات على هذه الأشغال تفرض على الشعب فرضاً على هوى الحكام ، الذين كانوا يتخذونها فرصة لابتزاز أمواله .



## الباب السادس

### الجنديّة

إذا كان المال عصب الحرب فالوطنية عصب النصر والاستقلال . من مفاخر نثر الدين الخالدة بثه في صدور رعاياه على اختلاف مذاهبهم وملهم روح الوطنية اللبنانية الحقّة . منذ الفتح الاسلامي أمسى المسيحي في الشرق غريباً عن وطنه . والوطن غريباً عنه . لأنه حرم الدفاع عن هذا الوطن . ولما نادى نثر الدين في رعاياه بالحرية الدينية والمساواة المدنية والاخاء ، صالح المسيحيين مع الوطن وصالح الوطن معهم . فانفتحت عين الشرق ، بعد أن مزقه التعصب الديني ، على مشهد فريد . المسيحي يحارب بجانب الدرزي والشيوعي والسني ، مازجا دمائه بدمائهم دفاعاً عن الوطن ، الذي أصبح للجميع .

هذا التضامن ، وقل التآخي ، كان سر القوة في الجيش الذي نظمته نثر الدين فوحد مقاطعات لبنان المتفرقة وجعلها دولة واحدة ، وضمن استقلاله بحدوده الطبيعية مدة ثلاثة قرون ، لم تطأه رجل جيش غريب ، وان وطنه حيناً لم تثبت طويلاً ، بل عادت عنه بعد قليل . كالصخرة المنتصبة على شاطئه ، تهاجمها الأمواج وتلطمها وتزحف أحياناً حتى أعلاها بيد أنها لا تلبث أن تنحسر عنها وتتكسر على قدميها ، فتتلاشى .

كان جيش الأمير ثلاث فئات . وطني ومأجور ومساعد .

كان مؤلفاً من اللبنانيين ، خاصة من عنصريهم الكبيرين الماروني والدرزي . ١ - الجيش الوطني . ذكر الدويهي والخالدي بين صفوف هذا الجيش فرقتين من شيعيي الجنوب والبقاع . وبعد السنة ١٦٢٧ أي بعد أن استولى الأمير على طرابلس والكورة وعكار نرى في جانبه فرقة من الملكيين . وكانت هذه الفرق تعارب تحت الوية امرائها ومقدميها ومشايخها ، ويخضع قوادها لأوامر القيادة العليا التي كان يتولاها الأمير بنفسه . وفي آخر عهده عين الأمير أبا نادر الخازن الماروني قائداً عاماً على جيشه



قلنا أن الأمير كان يستعين بجيش مأجور وبآخر مساعد ، إنما اللبنانيون كانوا نواة جيشه وروح الحية . لحمتهم الوطنية . وهدفهم الأعلى توحيد لبنان وتحريره من سيطرة الأتراك وجعله أمنع من أن تناله يد أجنبية مهما طالت وصالت . ففي السنتين ١٦١٣ و ١٦١٤ في أثناء غيابه حمد هذا الجيش أمام الحملة الكبيرة التي شنّها على لبنان حافظ أحمد باشا وإلى دمشق ، مع أنها كانت مؤلفة من أربعة وثمانين ألفاً . وهزم في السنة ١٦١٦ الجحافل التي جمعها يوسف باشا سيفا . حفظ هذا الجيش الوطني للبنان كيانه وثروته ، ولأميره الغائب عرشه .

أخبرنا ماجرى الذي زار لبنان سنة ١٦٢٤ « أن عدد الدروز تضاعف بعد أن مكر بهم ابراهيم باشا سنة ١٥٨٣ وقتل منهم زهاء ستين ألفاً . فلم يعد يسمع الأمير أن يجند منهم أكثر من اثني عشر ألفاً . بيد أن عشرين ألفاً من الموارنة يحاربون الآن تحت لوائه . وقد وسع الأمير مملكته كثيراً بمؤازرتهم » . وأيد الأمير نفسه هذا الكلام في كتاب وجهه سنة ١٦٢٤ عيناها إلى البابا أوربانس الثامن ، بشره فيه باستيلائه على كل البلدان المجاورة له حتى انطاكية مساحة مئات من الأميال ، بجيش مؤلف معظمه من النصاري .

وأفادنا البطريك الدويهي في تاريخه أن أغلب عسكر الأمير كانوا نصاري وكواخيه وخدامه موارنة .

وكانت الإلفة بين الموارنة والدروز محكمة الأواصر . فكتب الأب فيتالي سنة ١٦٤٣ في تقريره « أن الدروز شديدو الميل إلى الموارنة . ويكفي أن يشعر الدرزي بمرور ماروني بقربه ليدعوه إليه ويضيفه كاعز أقربائه » .

٢ — الجيش المأجور  
ضنا بحياة مواطنيه وعملهم في الزراعة والصناعة ، كان الأمير كغيره من الأمراء المجاورين يستأجر جتوداً من طائفة السكان العاصين على الدولة فيقيهم تحت السلاح درءاً للطوارئ وحفظاً للامن والحدود والقلاع .

هذه الطائفة مع ما كانت عليه من الجشع والفضاظة والتقلب أدت له خدمات كبيرة لشدة مراسها ويأسها من عفو السلطان . بيد أن اخلاصها كان متوقفاً على اخلاص قوادها فقد ينتهزون فرصة الحاجة الماسة إليهم ليطالبوا بأجور فاحشة .

وقد توصل احمد باشا حافظ في السنة ١٦١٤ إلى أن يتسلم من السكان قلاع الأمير المنيع لقاء مبلغ من الدراهم . وما أن تركوها حتى دكها إلى الأرض .



٣ — الجيش المساعد وكان الأمير في حملاته الكبيرة يستنجد بحلفائه كآل شهاب انسيائه  
حكام وادي التيم ، وآل حرفوش أصهاره حكام البقاع ، وقبائل البدو  
الضاربين في عجلون وجوران .

يبد أن البدو على قول ساتي « كانوا يخرجون في الحروب إلى الغزو والنهب والفتك »  
فلم يكن الأمير يستدعيهم إلا في حملات خارج حدود لبنان حرصاً على رعاياه .  
وأفادنا ماريقي أنه في السنة ١٦٣٤ فضل ضياع مملكته على السماح لهؤلاء بأن يدوسوا  
أرض لبنان .

وكان جميع حلفائه مدينين له بمرا كرمهم وبعضهم بحياته . وكثيرا ماخى في سيدهم راحته  
وماله وجازف أحيانا بملكه ورأسه .

٤ — عدد الجيش كان عدد جيشه يختلف أو بالاحرى يزداد حسب توسعه في الملك .  
لما أفلح إلى إيطاليا في السنة ١٦١٣ كان جيشه يقدر بعشرين ألفاً .

وفي السنة ١٦١١ تعهد عنه المطران جرجس مارون سفيره لدى البابا بتجهيز سبعين ألف  
محارب . بينهم ثمانية آلاف حشدتهم الشدياق يوسف خاطر الحصري . وروى القنصل  
دفر تسانو أنه في السنة ١٦٣٣ جهز ثلاثين ألفاً على الأمير طرايه سنجق حيفا . وقدر المحي  
جيشه في آخر حياته بمئة ألف .

٥ — نظام الجيش كتب ساتي في التقرير الذي رفعه إلى الغراندوق سنة ١٦١٤ « ان قوة  
جيش الأمير غير راجعة إلى وفرة جنوده ودربتهم في القتال بل إلى  
بسالة الأمير والخبرة التي اكتسبها في مواقع عديدة ، فضلا عن كثرة أتباعه ، وشدة بأس  
شعبه وحياته جيرانه » .

يبد أن ساتي انتقد قلة النظام في جيشه . فقال « الرجال يشون وراء الراية بلا ترتيب ،  
لا يحملون سوى البندقية ذات القداحة . أما خيولهم العربية الغالية الثمن فهي صبورة على  
التعب وسرعتها مدهشة . ومع أن طعامها الحشيش وحفنة من الشعير ، فهي تعمل النهار كله  
بلا كلل . يسيرون جماعات بدون بوق ويحاربون أفراداً بين كر وفر والامر كله متوقف  
على سرعة الحصان وخفة حركاته . وهم إذا عسكروا لا يحفرون خنادق ولا ينشرون خياما

تقيهم الحر والبرد والامطار . والمدافع عندهم نادرة يجهلون استعمالها . ويحمل كل جندي زاد ثلاثة أم أربعة أيام . وعليه أن يجهز نفسه بالسلاح من راتبه . ليس عندهم معامل لصنع السلاح أو البارود بل يستوردونها من الخارج . »

هذا الحكم مع أنه غير مرض يعود على الأمير بالفخر . فقد كان يتغلب بهؤلاء الجنود على جيوش تفوقهم عددا . وما لا جدال فيه أن أميرنا ظل بونابرت الشرق طيلة الخمس والاربعين سنة التي تولى فيها الحكم . ومع كونه لم يتخرج من مدرسة حرية كان يعرف كيف يصف رجاله في الميدان ويعين لهم النقاط الملائمة وينجد المراكز المهددة ويضرب العدو الضربة القاضية في الوقت المناسب . فينتزع منه ما أحرزه في بادئ الامر من التفوق بعدده . وكثيرا ما كان يخلص ببقائه وجرأته جيشه من ورطات صعبة ومآزق خطيرة ويحولها فجأة إلى نصر في جانبه .

وان شئت التثبت من ذلك فما عليك إلا أن تراجع في الخالدي وصف المعارك التي خاضها ، حيث كان مجرد حضوره ضامنا كافياً لفوز ذويه .

٦ — التجهيز  
أما بقية العيوب التي أشار سائتي إليها فغير ناتجة عن إهمال الأمير أو جهله بل عن تحريم الدولة التركية عليه إنشاء المعامل والمدارس الحربية . فهو لم يأل جهدا عن تجهيز جيشه وقلاعه بأحدث الأسلحة واستجلاب الخبراء الأوربيين لتنظيمه وتدريبه . وكان يبتاع بأغلى الأسعار الأسرى الأوربيين الخبيرين بفنون الحرب وأسلحته ويغريهم بالرواتب الضخمة أو بالهدايا ويعاملهم أحسن معاملة وكان يلج على أمراء الغرب ليعثوا إليه بالمهندسين والقواد والخبراء الماهرين بصنع البارود وصب المدافع وتركيبها واستخدامها . وذهب إلى أن استجلب من تسكانا فرانا لصنع البسماط للجنود واستخدم المهندسين لترميم القلاع وتشديد غيرها وتنظيم الموانئ وتحصينها .

وقال سائتي أيضا عنه « أنه لا يملك قوة بحرية بتاتا لأن شعبه منصرف عن الملاحة . ولأمر عذره في ذلك . فقد كان يستحيل عليه إنشاء أسطول حربي وتجهيزه تحت أنظار الأتراك لمقاومة عمارتهم التي كانت تلقي الرعب في صدور الأمراء والملوك الأوربيين أنفسهم . إنما سعى طيلة حياته إلى إحلال إحدى الدول الأوربية في جزيرة قبرس لتحتمي بأسطولها



الشواطىء اللبنانية إلى أن يتسنى له تجهيز عمارة خاصة . ولما كان في تسكانا نازلا ضيفاً على الغراندوق اصرح له « انه لا ينقصه للدفاع عن مملكته سوى قوات بحرية . أما في البر فلا يخشى الأتراك ولو جهزوا عليه مئة ألف مقاتل » .

## الباب السابع

### الخصومة

كتب المحبي في ترجمة الامير نحر الدين يقول « تدرج بعد موت أبيه وعلا شأنه إلى أن جمع جمعاً كبيراً من السكبان واستولى على بلاد كثيرة منها صيدا وصفد وما في تلك الدائرة من اقطاع كالشقيف وكسروان والمتن والغرب . وعاد من بلاد الفرنج في شوال سنة ١٠٢٧ و زاد بعد ذلك في الطغيان والاستيلاء على البلاد . وبلغت اتباعه نحو مائة ألف من الدروز والسكبان . واستولى على عجلون والجولان وهوران وتدمر والحصن والمرقب وسليبه . وبالجملة فانه سرى حكمه من بلاد صفد الى انطاكية . وبلغت شهرته الآفاق حتى قصده الشعراء من كل ناحية ومدحوه . وكان قد خرج عن طاعة السلطنة وجاوز الحد في الطغيان وأخذ كثيراً من القلاع في ضواحي دمشق وتصرف في ثلاثين حصناً . وجمع من طائفة السكبان جمعاً عظيماً . وبالجملة فقد بلغ مبلغاً لم يبق وراءه إلا دعوى السلطنة » .

وجاء في تقرير رفعه إلى الغراندوق القنصل دفر تسانو في السنة ١٦٢٩ بعد وصوله إلى لبنان « تصل مملكة الامير إلى مسافة نصف يوم من حلب ويومين من بغداد . فعل ذلك للاستيلاء على قلعة قدمر . وتمتد حدود مملكته من الجهة الاخرى إلى مسافة نصف يوم من دمشق . أما شواطئها فتنبسط من حيفا حتى أدنه . فتسكون قد زادت سبعة أثمان عما كانت عليه في السنة ١٦١٣ » التي قصد فيها إلى تسكانا .

وقد جهز الامير هذه المملكة الواسعة ، بالرغم من مراقبة الباب العالي ، بشبكة متينة من القلاع والحصون والابراج والاسوار . بنى بعضها ورمم البعض الآخر لرد الغارات عن

البلاد وتوطيد الامن فيها وحماية التجارة . وفي السنة ١٦٣٤ حالما تلقى من الاستانة لقب « سلطان البر » الذي خوله السلطة الشرعية على بلاد عربستان ، قصد على رأس جيش لتفقد مملكته ، فر بجمص وحماه ، واخترق صحراء سوريا إلى تدمر . وبلغ دجلة والفرات وعاد إلى حلب فانطاكية فدمشق فحوران ومنها إلى فلسطين ، مربماً القلاع ومجهزها برجاله ، محصلاً الاموال الاميرية من مدنها وعشائرها ، منظماً أحوالها وقاطعاً دابر الشقاوة واللصوصية فيها . حتى أن والى حلب ، حاكم المقاطعات الشمالية من سوريا ، هرول لملاقاته وتقديم الطاعة له والذخيرة لجيشه . واستصرخه الدمشقيون لشحة القمح فبعث إليهم من حوران بألف جمل محملة منها . ونادى من أعلى المآذن بتخفيض الاسعار وهدد الطامعين والمخالفين ، فأطاعوه وشكروه وهاك جدولاً مختصراً مرتباً على حروف الهجاء بأسماء القلاع والحصون والابراج التي كان يملكها الأمير . وقد بلغت خمساً وأربعين :

أبو الحسن : قلعة صليبية فوق الليطاني . انطاكية : بني فيها قلعة تشرف على المدينة . بانياس : أو صيبه فوق مدينة بانياس الحالية . البحصاص برج قبلى طرابس . بجمون : من أعمال الضنية . بشرى كان لها برج يحميها . بعلبك : قلعة شهيرة من عهد الفينيقيين . بيروت : كان لها برجان يعرف الواحد ببرج بيت الأمير جمال الدين ، والثاني برج الكشف أقامه نغر الدين في طرف قصره ليكشف منه البحار والجوار . وعرفت به حتى الآن ساحة البرج . تبنين هي طورون الصليبيين Thoron في لبنان الجنوبي . تدمر : قلعة عظيمة في مدينة تدمر الاثرية . جبيل . ما زالت آثار قلعتها ظاهرة حتى اليوم . جزين فيها مغارة محصنة . جيزين : حصن في مقاطعة نابلس . حصن الاكراد أو قلعة الفرنجي ما زالت قائمة حتى اليوم تشهد بقاياها بعظمتها . حلب : شيد الأمير فيها قلعة على كتف الروج غير قلعتها الحالية . فضلاً عن حصن قريب منها يدعى شميميس أو الشاميس . حيفا : كان لها برج هدم . دويه : برج في بلاد بشاره . ساليه أو سليمه أو سلهينه : قلعة في الشمال الشرق من حص . سمار جبيل : قلعة فوق البترون . شقيف أرنون : Beaufort أو بوفور الصليبيين . الشوبك : قلعة في سنجية عجلون . صافيتا : قلعة في بلاد العلويين كان الصليبيون يسمونها القصر الأبيض Chateau Blanc . صفد : قلعة صليبية باسم الملكة أستير . صلخد . قلعة في حوران . صهيون : قلعة صليبية في بلاد العلويين . صور : فيها الآن برجان واحد في الميناء والآخر في



مدخلها . صيدا : لها قلعة في الميناء تصل باليابسة بجسر من حجر . وأخرى قبلى المدينة تنسب إلى القديس لويس التاسع . طرابلس : قلعة صليبية قائمة حتى الآن على تلها . وقد بنى الأمير قلعة أخرى تحت منها . عجلون : كان فيها قلعة . عريمية : قلعة صليبية فوق وادى الابرش أحد مراكز الدفاع عن طرابلس . غزير : عاصمة بني عساف كان فيها قصر حصين . قب الياس : بنى فيها قلعة ما زالت آثارها ماثلة . القليعات : فى جون عكار كان فيها قلعة . القيرانية : برج فى الهرمل . اللبوة : حصن يحمى مدخل البقاع من الجهة الشمالية . مارون : قلعة صليبية بجوار دير كيفا بين صافيتا وحصن الاكراد . مصياف : قلعة بين المرقب وحماء . مغارة الحمام : بقرب صفد . نيجا : أو شقيف تيرون ، قلعة صليبية . تل الريح : حصن بقرب صفد .

## القسم الثانى

# السياسة

## الباب الأول

### الشروع فى الوحدة اللبنانية

سطعت عظمة نحر الدين فى سياسته الداخلية ، الرامية إلى الوحدة اللبنانية ، وفى سياسته الخارجية ، الرامية إلى تعزيز هذه الوحدة وتأمينها ، سطوعا أهر أبصار معاصريه ، فعدهو بحق « أكبر أمير فى الامبراطورية العثمانية » . رسم لوحدة لبنان واستقلاله وعظمته خطة واسعة النطاق ، محكمة الاجزاء ، سعى وراءها طيلة خمس وأربعين سنة بثبات وعزم ووحدة نظر وبقظة وفطنة ومرونة ، فأدرك الهدف وتجاوزه بمراحل .

من أمير مقاطعة الشوف الواقعة فى طرف سلسلة جبال لبنان الجنوبية ، أصبح الحاكم

الأوحد لمقاطعاته الخمس عشرة فضمها تحت لواء واحد سهلاً وجبلاً . ولم يكتف بحدود لبنان الطبيعية بل وسعها حتى وراء أدنه في الأناضول وصحراء سوريا والجزيرة شمالاً وحروران شرقاً وغزة جنوباً . وقد تجاوزت قلاعها الأربعين وجنوده المئة ألفاً كما مر بك بيانه .  
وتأميناً لقيام هذه المملكة الواسعة من غدر تركيا وبطشها حالف أعداءها من أمراء أوروبا وإليك كلمة في الميدان الذي كان على الأمير العمل فيه :

١ — الولايات والسنجقيات كانت سوريا ، في عهد الأمير ، منقسمة إلى ولايتين : حلب في الشمال ، ودمشق في الجنوب . ولكل منهما سنجقيات . ولم يكن والى والسنجق سوى موظفين مؤقتين ، اشتريا المنصب بالمال . لا يستقر بهما المقام حتى يدركهما النقل أم العزل . لا سيما إذا تغير وجه السياسة في الاستانة .  
وقد كان هذا الجو كثير التقلب « لضعف السلاطين » ، وجشع الوزراء ، وضغط ثورة العجم الطويلة ، التي استنفدت خزنة السلطنة ، واهلكت جيوشها وضعضعت أحوالها ،

في التقرير الذي رفعه إلى دولته في ٢٧ شباط ١٦٠٢ ، فنسشسر دندولو Dandolo قنصل البندقية في حلب عد ١٣٣ واليا تناوبوا على الشهباء في مدة ١٨٤ سنة ، تسعة منهم عينوا في السنوات الثلاث التي قضاها في هذه المدينة . وشهد الرحالة سانديس في السنة ١٦١٠ ان والى دمشق كان يتغير كل سنتين أم ثلاث .

وإذا حطت رحال والى في مقر منصبه حامت حوله مطامع طلاب السنجقيات والوظائف . فاسترد منهم أضعاف ما بذله في سبيل وظيفته . وعمد إلى الرعية فابتز مالها بشتى الأساليب ، من ضرائب إلى جرائم إلى بلص . ناهيك عما يستوفيه من أصحاب الأغراض وطلاب الثأر ، ومثیری الاضطهادات والفتن الدينية . هذا والوزير يغض الطرف عن مظالمه ، ولعله يشجعها ليقاسمه الغنيمة .

ولم يكن الفائزون بالسنجقيات والوظائف بأقل من الولاة وطاعة على الشعب ، ليستردوا أضعاف ما بذلوه للوالى أو للوزير . لأن والى لم يكن له سوى أن يعرض المرشح ، والباب العالي هو الذى كان يصادق على هذا الترشيح ويحول المنصب إلى ذويه والطارقين بابه رأساً



أما لبنان فقد كان مؤلفاً من مقاطعات مستقلة ، لكل منها أميرها ونظامها وماليتها وجيشها الوطني . ولم يكن للامير علاقة بالدولة العثمانية سوى بتأدية المال المعين على مقاطعته . يورده رأساً إلى الباب العالي إذا شاء أو على يد والى دمشق . وفي ماعدا ذلك كان الأمير اللبناني مستقلاً عن الدولة العثمانية ، يحكم في مقاطعته حسب التقاليد المرعية في أسرته وبلاده وكان لكل مقاطعة أسرة حاكمة عريقة في لبنانيتها توارثت الحكم أباً عن جد . ولم يكن للامير الوارث من حاجة إلى طرق الباب العالي ليقره على منصبه . إلا إذا طمع بسنجقية يضمها إلى مقاطعته ، وكان له من كواخيه وقواده شبه مجلس شورى يأخذ رأيه في المهام الخطيرة والأوقات العصيبة .

وللمحافظة على سلامة أراضيهم من تعدى الجيران ، وعلى الأمن الداخلي من الأشقياء والطامعين ، كان للامراء اللبنانيين ، خلاف الجيش الوطني ، جيش عامل من المستأجرة يحرسون القلاع ويسهرون على راحة العباد وغرض الحكام من ذلك حقن دماء مواطنيهم وتوفير أوقاتهم للزراعة والصناعة والتجارة كما سبق القول . فلا يستدعون الجيش الوطني إلا لصد هجمات أجنبية أو للقيام بحملات كبيرة .

فكان لبنان من هذا القبيل مستقلاً بنظامه ، مستقلاً بأماراته الوراثية ، وجميع أمرائه كانوا من أسر استوطنت لبنان منذ القرن الثاني عشر في عهد الصليبيين أو بعيدهم بقليل وبعضها نزلته منذ القرن التاسع ، فهي إذاً لبنانية . وأشهر الأسر الحاكمة في لبيان كانت من آل سيفا وشعيب وعساف وأبي اللمع وتنوخ ومعن وشهاب . ولتستعرض تاريخ هذه الأسر بادئين من شمال لبنان .

٢ — الأمراء اللبنانيون  
روى صالح بن يحيى وابن سباط أنه بعيد نكبة كسروان في السنة ١٣٠٧ التي دارت فيها الدوائر على نصارى لبنان الأوسط وعلى خلفائهم الدروز من أتباع آل أبي اللمع ، كاف التركان من آل سيفا وعساف وأمراء الغرب من آل تنوخ ومعن محافظة السواحل اللبنانية خوفاً من هجوم الافرنج عليها واتصلهم بنصارى الجبل . فأكبر الظن أن آل سيفا تولوا حينئذ مقاطعة عكار ، سهولها وجبالها حتى إلى اللاذقية ، أما آل عساف فقد نزلوا من الكوره بأمر الملك محمد بن قلاوون للمحافظة على الساحل اللبناني من البترون حتى غزير . وفي السنة ١٣٤٥ ، على أثر غارة ملك قبرس على بيروت ،

صدر الأمر إلى آل عساف وأمراء الغرب بسكنى بيروت والمحافظة على شواطئها . وفي السنة ١٥١٥ ولى السلطان سليم العثماني بني عساف بلاد جبيل والبترون .

وروى البطريق الدويهي عن الأمير منصور عساف أن حكمه امتد من نهر الكلب حتى إلى حصن وخماه . واتخذ كواخيه من آل خبيش الموارنة . وفي السنة ١٥٧٩ قدمت عليه الشكوى لقتله ابن شعيب صاحب طرابلس فصدر الأمر بأن تسكون طرابلس باشوية وأن يتولاها يوسف سيفا التركاني .

أما مقاطعات المتن والغرب والشوف فكانت في عدة الأمراء الدروز ومقدمهم . ذكر المطران تادرس في تاريخه أن بيت أبي اللمع مقدمي الشجار والجرد والبقاع حاربوا ، في السنة ١٢٩٤ م بجانب الكسراونيين ، الجيش الدمشقي الزاحف على كسروان فكسروه في عين صنين . وصاهر اللعميون نحر الدين المعني الثاني . وأعطاهم الأمير حيدر الشهابي في السنة ١٧١١ لقب امراء . وقد تنصروا في القرنين الأخيرين هم وآل شهاب وانضموا إلى الطائفة المارونية ، التي أصبحت صاحبة الأغلبية في لبنان .

وكان آل تنوخ من نصارى الغرب قد اعتنقوا الاسلام في أول ظهوره . وسكنت قبيلة منهم حلب . ثم قامت إلى الجبل الأعلى . واستوطنوا كسروان سنة ٨٢٠ م . وأقطع الملك نور الدين في السنة ١١٩٣ الأمير حجي التنوخي القيسي مقاطعة الغرب . وفي السنة ١٣٠١ تبرأ علم الدين التنوخي من آل عشيرته وتزعم الحزب اليمني . واختصت سلالته باسم آل علم الدين وأمست عدوة التنوخيين . وكانت الست نسب والدة نحر الدين الثاني تنوخية أصيلة . وفي السنة ١٦٣٤ لما قبض على هذا الأمير أقيم علي علم الدين مكانه فقتل آل تنوخ وأطفالهم في اعليه غدراً وانقطعت بهم ذريتهم .

فآل تنوخ الذين حكموا كسروان ثم مقاطعة الغرب لبنانيون منذ فجر القرن التاسع . وينتسب آل معن إلى الأمير معن الأيوبي الذي أمره طفتكين صاحب دمشق سنة ١١٢٠ أن يقوم بعشيرته إلى البقاع ويصعد منها إلى جبال لبنان لشن الغارة على الافرنج في السواحل . فسكن الشوف وتولاها وتوارث أولاده وأحفاده الحكم فيها .

وتولى أمراء آل شهاب مقاطعة حوران بعد الفتح العربي ، أي منذ السنة ٦٤٤ م وفي السنة ١١٧٣ نزحوا إلى وادي التيم واستوطنوه وتغلّبوا فيه على الافرنج فحكموه . وبعد



سنتين صاهروا آل معن وكانوا مع التنوخيين أكبر مساعديهم. وفي السنة ١٦٩٧ التي انقطعت فيها سلالة المعنيين في لبنان ، ب وفاة الأمير أحمد ، تولى مكانه ابن بنته الأمير حيدر موسى الشهابي . وظل الشهابيون يتوارثون الحكم في لبنان حتى السنة ١٨٤٣ .

فأمراء لبنان جميعهم من أبنائه . وكانوا مستقلين في مقاطعاتهم يتوارثونها أبا عن جد . بينما كانت سوريا بولايتها رازحة تحت ثقل النير التركي رأساً يحكمها ولاية أجنبية توفدهم الاستانة كموظفين مؤقتين . لا يعرفون من لغة البلاد وأحوالها سوى المال .

٣ - لبنان في السنة ١٥٩٠ : وقد استخدم نحر الدين لتوحيد لبنان وضم ولايتي سوريا وسنجدية إليها وسيلتين : السيف والعتاء . استولى بالسيف على مقاطعات لبنان لأنها كانت أمارات وراثية . وابتاع من الدولة العثمانية بالمال ولاية سوريا وفلسطين وسنجدية لأنها كانت تباع كسلع في أسواق الاستانة لمن يزيد في العطاء . ولنلق نظرة على حالة لبنان في السنة ١٥٩٠ التي تولى فيها الأمير ادارة الشوف .

إن سلسلة الجبال الجبارة ، المنتصبة على الشاطئ الشرقي من بحر الروم ، الناطحة السحاب على ارتفاع ٣٠٦٤ متراً ، قد نصبت لبنان سيداً على البحار والسهول المنبسطة تحت قدميه . ولما كان سيداً كريماً شق ذيل ثوبه الأخضر المخمل خلجاناً ظريفة لجأت إليها القوارب من عواصف البحار ، ووزع بسخاء على السهول المحيطة به المياه المتدفقة من جنباته ، المتجمعة من ثلوج رأسه .

بيد أنه حرم نفسه خيراتها وأساء إلى نفسه الاساءة كلها . لأن السيول الهادرة جرفت تربته إلى السهول ففقرته وأخصبتها ، والأنهر المتدرجة فتحت فيه الأودية العميقة كجروح بالغة في جسمه فاستنفدت دماؤه لتغذية السهول . فنضب هو وأخصبت هي . وقد جزأته الأودية والأنهار والجبال ومطامع الامارات إلى مقاطعات مقطعة الاوصال : عسكار . طرابلس . الضنية . الجب . البترون . جبيل . الفتوح . كسروان . القاطع . المتن . الغرب . الشحار . الجرد . الشوف . وادي التيم . البقاع . جبل عامل . بلاد بشاره . صيدا . صور . لما تولى الأمير نحر الدين الشوف كان يحكم هذه المقاطعات أمراء ومقدمون . توصل اثنان منهم ، منصور بن الفريخ جنوباً ، ويوسف باشا شمالاً ، بالمكر والجسارة والقسوة إلى ضم أكثرها ، وأخذوا يعدان العدة لابتلاع البقية .

كان ابن الفريخ ضاغظاً يمينه الغليظة على البقاع والجليل وعجلون ونابلس ، وابن سيفاً كان قابضاً على طرابلس والجبّة والضنية وعكار وكامل سوريا الوسطى مع شبكة قلاعها وحصونها المنيعّة . وكانت له الكلمة النافذة في الاسّانة . أما الأمير محمد عساف فكان متولياً الكورة والبترون وجبيل والفتوح وكسروان حتى بيروت . وقد جعل عاصمته غزير ومشايخ آل حبيش الموارنة وزراره وعطف على رعاياه المسيحيين .

أما مقاطعات المتن والغرب والشوف فلبثت بيد المقدّمين الدروز من آل أبي اللمع وتنوخ وعلم الدين .

على أن أبصار الداهيتين فروخ وسيفاً كانت ترنو إلى بقية المقاطعات اللبنانيّة وقد اتفقا على ابتلاعها وانتظرا الفرصة ، فأتتهم . في السنة ١٥٨٤ نهبت خزينة السلطان في جون عكار التابعة لابن سيفاً فاتفق هذا مع ابن الفريخ على إصاق التهمة بأمر الدروز حاكم الشوف وبمحمد العساف حاكم جبيل والبترون والفتوح وكسروان ليتخلصا منهما دفعة واحدة ويغنا مقاطعاتهما . فحضر إبراهيم باشا والى مصر إلى الشوف بعسكر جرار وأنهى إلى الأمير قرقاس بن معن والد الأمير نحر الدين باحضار الغرماء . ولما لم يكن لديه غرماء اختفى . فأباح الباشا جنوده أموال الدروز وأعراضهم ورؤوسهم . فقتلوا منهم ستين ألفاً وأمعنوا في نهب بلادهم وحرّقها . ولما حضر ستائة من عقالمه ليسترضوه غدر بهم وقتلهم .

وحضر لديه الأمراء محمد بن العساف من غزير ، ومحمد جمال الدين من عرامون الغرب وابن عمه الأمير منذر من اعبيه فأخذهم مسكبين إلى الاسّانة . حيث برأوا أنفسهم لدى السلطان مراد بن سليم . فعاملهم بالحلم وأعاد إليهم مقاطعاتهم . أما الأمير قرقاس المعنى فلبجاً إلى مغارة جزين حيث مات عن ولدين هما الأمير نحر الدين والأمير يونس .

وكان خاله الأمير سيف الدين التنوخي حاكم الغرب قد ضمن أيضاً الشوف . ففي السنة ١٥٩٠ ، لما بلغ الأمير نحر الدين الثامنة عشرة ، سلبه مقاطعة أبيه «وقواه بالمال والرجال» . هذا هو الميدان المضطرب الخطر الذي كان على الأمير نحر الدين خوض شماره .

لما تحالف سيفاً وابن الفريخ على هلاك الأمراء اللبنانيين وابتلاع مقاطعاتهم وكانا صاحبي الحول والطول في لبنان وسوريا وفلسطين والاسّانة ، جمع الأمير عليهما المبغضين والمستائين والمزاحمين وطلاب الثأر والغنيمة . فأصبح لديه فجأة وبلا نفقة جيش



قوى ان لم يواز جيشهما عددا وعدة ، فاتهما ببأس قائده ويقتضته . منهم أقاربه من آل شهاب  
حكام وادى التيم برعاياهم . الدروز ، وآل حرفوش الذين ولاهم البقاع ، وهم من أهل  
الشيعة ، وعرب المفارجة مشايخ حوران ، وعرب قنصوه أمراء عجلون ، وعلى باشا جنبلاط  
والى حلب ، وموارنة جبيل والبترون والجبة فى لبنان الشمالى ، الذين عملوا لمصلحته ضد سيفا  
عدوه ووالاهم تخلصا من ظلمه . فضلا عن مقدمى بيت الصواف وأبى اللمع ومشايخ الجرد  
والشوف وجانب من كسروان .

وكان الأمير نضر الدين يتوسط لهم فى تولى المقاطعات ويعززهم فيتعزز بهم . وإذا سنحت  
الفرصة شد أواصر المحالفة بالقرابة . فصاهر آل شهاب وحرفوش وأبى اللمع ويوسف  
سيفا ذاته . وبرهن لهم أنه أخلص الأقرباء إذا أخلصوا له . وإن خانوه استعان عليهم بالقرابة  
كإسيأتى بيانه .

## الباب الثانى

### التروع فى الوعدة اللبنانية

لم يعتل الأمير نضر الدين عرش أبيه حتى شعر به يتقلقل ، ولم يكد يعد العدة ليصمد عليه  
حتى دفعته الحوادث إلى خوض ميدان القتال .

فى السنة ١٥٩٠ توصل ابن سيفا إلى إيقاع الأمير محمد عساف فى كمين  
١ - مقتل محمد عساف بين البترون والمسيلحة والغدر به . فانقرضت به دولة بنى عساف الذين  
استوطنوا لبنان منذ السنة ١٣٠٩ .

وبعد ثلاث سنين تزوج سيفا أرملة ضحيته ووضع يده على جميع أملاك آل عساف  
وأموالهم . فقسنى له بهذه الضربة أن يضم إليه مقاطعات الكورة والبترون وجبيل والفتوح  
وكسروان حتى بيروت وأن يصبح ذا ثروة هائلة جمعها آل عساف طيلة ثلاثة قرون ،  
وذا سلطة واسعة تمتد من اللاذقية حتى بيروت . فامسى بقية أمراء لبنان ومقدميه  
تحت رحمته .

نصفه من دوزم اردك

ووجد نحر الدين نفسه بين مخلي ابن سيفا وحليفه ابن الفريخ وكل من الاثنين جبار غدار ، فاصبح الخطر داهماً خطيراً لا يحتمل تلافيه تأجيلاً . فرأى الأمير أن يتخلص أولاً من ابن الفريخ ليحمي ظهره ويضعف سيفا عدوه . ثم يتحول عليه بكميته . وقد فاز بأمنيته الأولى دون أن يجرّد السيف من غمده . لم يتكلف سوى كمية قليلة من الدراهم وبعض كلمات معسولة .

في السنة ١٥٩٢ ولي مراد باشا ولاية دمشق . ولما بلغ صيدا لاقاه الأمير ٢ - مقتل ابن الفريخ بالهدايا وخوفه من سطوة ابن الفريخ ، واطمعه بقتله . فاحتال مراد باشا عليه حتى قتله وكلف نحر الدين التخلص من أولاده العشرة . فكبسهم الأمير ونهب بيوتهم . وفر أكبرهم قرقاس الظالم إلى قب الياس . فاوعز الأمير إلى حليفه موسى ابن الحرفوش فغدر به وتسلم منه البقاع .

وكان على الأمير أن يعمل على إبعاد ابن سيفا عنه ، فإزال بمراد باشا صديقه حتى سعى له بولاية بيروت وباستعادة صيدا . فسكن الأمير صيدا ورمم قلعتها وأقام سورها ونشط تجارتها وجعلها عاصمة مملكه وأكبر ميناء في الشرق الأوسط كما رأيت .

وفاز الأمير من مراد باشا لحفائه بسنجقيات ابن الفريخ . فسلم البقاع لموسى حرفوش وعجلون لحمدان قنصوه وهوران لعمر شيخ المفارجه . فتقوى بهم وكثرت اتباعه .

وهكذا ظهرت حكمته وعفة نفسه . فقد اكتفى من تركه غريمه ابن الفريخ بسنجقية صيدا . وسلم إلى لحفائه بقية السنجقيات ، وجعل له منها حول ولايته الجديدة منطقة صديقة تتلقى عنه صدمات العدو الأولى ، وتخوله الوقت الكافي لمنعه عن دوس أراضي .

٣ - منازلة سيفا . أصاب الأمير نحر الدين بسهمه السياسي الأول هدفًا كثير الشعب كان له الشأن الخطير في مشروعه الكبير وفي حياته . ثار لآييه وذويه بمقتل ابن الفريخ الذي وشى بهم زوراً ، وتخلص من عدوانه وطغيانه ، واضعف ابن سيفا عدوه الآخر وسلخ عنه بيروت ، واسترجع صيدا ، فضلا عن سنجقيات عجلون وناپلس والبقاع التي وزعها على لحفائه ، فاشتد بهم وأصبح في مقدوره التفرغ لمنازلة ابن سيفا . الذي بدأ نجمه بعد هذه الضربة في النزول حتى الأفول ، بينما أخذ نجم نحر الدين في الصعود حتى أوج السماء .



على أن استيلاءه على بيروت كان تحدياً لابن سيفاً . فترث هذا إلى السنة ١٥٩٨ التي ترك فيها مراد باشا ولاية دمشق وجمع على نحر الدين جيشاً كثيفاً لاسترجاع بيروت . فنادى الأمير بحلفائه وانتظره في وادي نهر الكلب الضيق ، حيث لا يسع الجيش الضخم التحرك ، وهناك باغته واعاده على اعقابه ، وسلخ عنه كسروان والفتوح .

وجد سيفاً نفسه مغلوباً في ميدان الطعان من هذا الشاب الناشئ فلجأ إلى المداينة . وما زال به حتى صالحه واسترد منه المقاطعتين . فضل الأمير صداقة هذا العدو ، الذي كان سيد البلاد الأكبر وصاحب النفوذ العظيم لدى الباب العالي ، على معاداته . على أن سيفاً ما عثم أن خانة وبعث سنة ١٦٠١ بمن غدر بمقدمي جاج حلفاء الأمير . فاورع هذا إلى موسى حروفوش فكبس في السنة ١٦٠٢ جبة بشرى التابعة لسيفاً ونهب بيوتها وساققتها . فما كان من سيفاً إلا أن جمع عليه خمسة الاف مقاتل وكبس بدوره بعلبك وحاصر القلعة خمسين يوماً حتى ملكها وقتل بعضاً من حلفاء نحر الدين . ثم قصد في السنة ١٦٠٥ إلى جونيه . بيد أن نحر الدين كان واقفاً له بالمرصاد . فتصدى له هناك وهزمه شراً هزيمة وانتزع منه كسروان والفتوح .

٤ — المصاهرة لم يكن كسروان سوى ذنب الأفعى . فقد بقيت في حوزة سيفاً مقاطعات لبنان الشمالى ، فضلاً عن سوريا الوسطى ، أى أنه ظل محتفظاً بقواه الحربية والمالية والسياسية . وكان علي باشا جانبولاد قد عصى الدولة بعد مقتل عمه حسين باشا غدرأ و اغتصب ولاية حلب ، فطلب سيفاً من الاستانة أن يُنقلد الأمانة على عساكر الشام فيلتزم بإزالة العاصى . ولما جاءه الأمر على ما التزم أرسل إلى عساكر الشام أن يجتمعوا في حماه . فاجتمعوا هناك .

وبعث على باشا يستنجد بفخر الدين . فأُسرع برجاله واحتل طرابلس . ولما تلاقى الجيشان انكسر سيفاً ، وبينما كان منهزماً إلى دمشق سد عليه نحر الدين الطريق فاضطر أن يركب البحر إلى قبرس ثم إلى غزه ، حيث أنجده الأمير طراييه صاحبها برجال أوصلوه إلى دمشق . فلما علم الحليفان بمجيئه إلى دمشق قصدوا إليها ونازلوه في أواسط تشرين الأول سنة ١٦٠٦ فكسراه والجأه إلى الهرب . واستباح على باشا المزة ثم دمشق ولم يرجع عن هذه حتى راضاه أهلها بمبلغ مئة وخمسة وعشرين ألفاً . ولما عرض قسماً منه على نحر الدين أبى قبوله

ولجأ ابن سيفا إلى حصن الأكراد في مقاطعة عكار ، فقصده إليه علي باشا وحده لمرض نحر الدين واستصفي منه ما يقرب من ثلاث كرات من القروش . ثم صالحه علي أن يزف إليه إحدى بناته وأن يزف علي باشا شقيقته إلى أحد أولاده . ولما علم نحر الدين أرسل يهدد حليفه بقطع علاقته معه إن هو قبل بمصاهرة أعدائه . فنزل علي رغبته وأنزل بنت سيفا لدى إحدى قريباتها في حلب . على أن سيفا لم يعد وسيلة لارضاء الحليفين . وأكبر الظن أنه زف إلى نحر الدين في هذه المناسبة عليه بنت الأمير علي ابن شقيقه .

على أن سيفا ولد خائناً . ففي السنة التالية لما جهز الباب العالي حملته على علي باشا جانبولاد ، وأمرع نحر الدين لنجدته ، كان سيفا أول من وقف في جانب الوزير ضد صهره الحلبي . وكان أول من سعى لدى الباب العالي ضد نحر الدين صهره الآخر ودبر عليه حملة السنة ١٦١٣ . وقد انتهز فرصة غيابه في تسكنا فغزا بلادده وأحرق قصره في دير القمر ، واسترد منه بيروت وكسروان . وفي السنة ١٦١٥ لما تمكن الأمير علي بن نحر الدين من استرجاع ولاية أبيه ، جمع سيفا عليه جميع أعداء المعينين من يمنية وغيرهم . إنما لقي جزاء خيائته بكسرة شيعية مني بها على يد جيش نحر الدين كما سيأتي بيانه .

### الباب الثالث

#### اتمام الوحدة اللبنانية

( ١٦١٨ — ١٦٢٤ )

إن نفى الأمير في إيطاليا ، الذي استمر خمس سنين وأذاقه مرارة الغربة والذل والفقر لم يثبط عزيمته بل شحذها ، فعاد إلى لبنان في آخر ايلول ١٦١٨ مصمماً على قهر ابن سيفا وإتمام الوحدة اللبنانية وماوطئت رجلاه أرض عكا ، التي كانت تابعة للبنان ، حتى



وفد أمراء البلاد ومشايخها للسلام عليه . وكان بينهم حسن بن يوسف سيفاً جاء بهدية من الخيل . فالتفت إليه الأمير وقال له « ما نحن بحاجة إلى هذه الخيل بل إلى أخشاب نعمل بها حارتما في دير القمر التي أحرقها أبوك ، وإلى الاثنين والعشرين ألف قرش التي استدانها من جماعتنا في الاستانة ، وإلى طرشنا وطرش توابعنا الذي أودعناه إياه قبل سفرنا ، فضلاً عن وقوفه بجانب حافظ باشا لما غزا بلادنا ونهبها ، وشكواه علينا إلى الباب العالي وتعييره إيانا بقصر القامة ونحول الجسم ، ثم هتف شعرا .

نحن صغار وأتم كبار      أتم نخل ونحن للنخل منشار  
بحق زمزم والنبي المختار      لأعمر كيا دير بحجار عكار

١ - جيل والترون      كان عمر السكتانجي قد تعين على إيالة طرابلس ، ولما لم يمكنه سيفاً من مالها استنجد عليه بفخر الدين ، فجمع جموعه وحلفاءه ، منهم الشيخ أبو نادر الخازن وافاه برجال كسروان ، فأوعز إليه أن يربط طريق نهر ابراهيم . وكانت ليلة ممطرة فسبقهم الأمير بثلاثمائة رجل إلى طرابلس . أما سيفاً فهرب إلى الحصن وأرسل أحماله بطريق آخر فوقعت بين يدى الأمير . وكانت كمية وافرة من أصناف الحرير والأنسجة . وقبض رجاله على الطفل محمد بن حسن سيفاً ، ابن شقيقة على باشا جانبولاد فارسله إلى والدته سالماً . ثم حاصر الأمير الحصن وضيق على ابن سيفاً حتى نفذ الخبز من بين يديه وأكل ورجاله لحم الخيول . فاضطر إلى مصالحةته لقاء ستائة ألف قرش ، نقده منها مئة ألف ورهن له أملاكه في طرابلس وغزير وبيروت ضماناً للبقية .

وفي أثناء الحصار ركب الأمير مع بعض رجاله إلى عكار وهدم جميع قصور ابن سيفاً ، ما عدا قصر الأمير محمد الصغير ، ونقل حجارتها الصفراء الجميلة إلى البحر ومنه إلى صيدا فدير القمر حيث تشاهد حتى اليوم في أغلب ابنية المعنيين

واستولى على مقاطعتي البترون وجبيل وأقام أبا نادر الخازن حاكماً على الأولى والمقدم يوسف ابن الشاعر على الثانية . وهدم قلعتها ليرتك باب هذه المقاطعة مفتوحاً إذا تسنى لابن سيفاً استرجاعها . ووضع سكانه في قلعة سمار جبيل . وثرث حتى أعاد الأهالي الهاربين وطمانهم على أرواحهم وأموالهم لأن غايته كانت عمار البلاد .

وهكذا أضعف حليفه مالياً وسياسياً

٢ — جبة بشرى — هي مهد الموارنة حلفاء شتر الدين وأغنى المقاطعات اللبنانية بالرجال الأشداء والحرير والزيتون والأثمار . بيد أن سيفاً جعلها خراباً بظلمه وجشعه . فوعد الأمير أهلها بتخليصهم وانتظر الفرصة .

ففي السنة ١٦١٩ أرسل سيفاً ابن أخيه محمد يعرض على الأمير إعادة مقاطعتي جبيل والبترون إليه لقاء تنازله عن أملاكه في غزير . فأجاب الأمير « لقد اشتكى علي عمك إلى الباب العالي بعد أن عقد الصلح بيننا . فيما أن ينزع نعمتي أو أنزع نعمته ، ولقد صممت على ضمان طرابلس ولو احقها » . قال هذا وعرض على الباب العالي مئة ألف قرش ضماناً لهذه المقاطعة . فوعد سيفاً بمئتي ألف ذهب خدمة للسلطان وبثلاثين ألفاً لوزيره فضلاً عن المال . ولما لم يتمكن من الوفاء بوعد كلف الصدر الأعظم نحر الدين تحصيل الأموال المتأخرة . فعرض الأمير على سيفاً أن يبتاع منه مخلفات آل عساف في بيروت ومزرعة انطلياس مع حارة غزير بخمسين ألفاً يسدها عنه . فاضطر إلى التنازل له عنها . ولما تم له ذلك طالبه ببقية الأموال المتأخرة للباب العالي . فتمنع . فجهم على طرابلس وافتتحها في الثاني والعشرين من تموز السنة ١٦٢١ ونزل قصر حسن باشا ابن يوسف سيفاً وحاصر القلعة . فاطلقت حاميتها على القصر ثلاث قنابل لقتله . على أن الأمير كان خارجاً عنه . فلما علم بالخيانة أمر بدكه وكانت عمارة عظيمة كلفت خمسين ألفاً . وأوفد الأمير الشيخ أبا صافي الخازن فدخل برج بشرى وطرده منه رجال سيفاً وضبط المقاطعة .

وهكذا تسنى للأمير ضم جميع المقاطعات المارونية إليه فتقوى بهم وتقوا به . فكانت نهضتهم على يده وكان نجاحه على يدهم . وزاد سيفاً عدوهم ضعفاً على ضعف وفقراً على فقر .

٣ — الضنيه وعكار — بقى على الأمير أن يقطع مرحلة طويلة لبلوغ غرضه من الوحدة اللبنانية . فقد استعاد سيفاً طرابلس لقاء عهد قطعه بتسديد المتأخر عليه للباب العالي ولتجار الاستانة . بيد أن موارده شحت كثيراً بفقد المقاطعات والأملاك التي انتزعها منه نحر الدين . بينما كانت الديون تتراكم عليه والفوائد تثقل كاهله .

وفي السنة ١٦٢٣ لما بعث سيفاً بكواخيه إلى الاستانة ليتسددوا مالا يرضى به الباب



العالى قبض الصدر الأعظم عليهم، فاعتذروا بفرأغ أيديهم وأشاروا على الوزير بأقرار ولاية طرابلس على عمر باشا السكتانجى صديق نخر الدين . فجاء عمر باشا وسأل الأمير مساعدته على تسلم الولاية . فوعده الأمير بالمعونة إن هو كتب له مقاطعتى عكار والضنية ، لقاء تقديم مالهما سلفاً . فنزل عمر باشا عند رغبته لشدة حاجته إلى المال . ولما تغيرت الوزارة تمكن سيفاً من استعادة ولاية طرابلس فاشتراط عليه نخر الدين أن يسلم عكار إلى بلك ابنه وصهر الأمير . فلباه مرغماً . ثم عن له استعادتها انتقاماً ، لانحيازها إلى جانب الأمير . فشد الأمير أزره وأقنعه بالاتفاق مع ابن عمه سليمان سيفاً صاحب صافيتا على طرد سكان والده والاستقلال بالمقاطعتين . ولما توفى حسين باشا بن يوسف باشا سيفاً الذى صاهر هو أيضاً الأمير أرسل أخوه عمر صاحب حمص يطلب أرملته . فرضى نخر الدين بذلك .

وحلت الصداقة بينه وبين صهره الجديد محل العداء القديم . وسرى بلك وسليمان سيفاً فى جانب الأمير فى موقعة عنجر وغيرها . مما يشهد بحسن فراسة الأمير فى مصاهرة أعدائه والتوسل بها إذا خانوه لضعافهم .

لما انتزع نخر الدين البقاع سنة ١٥٩٣ من يد ابن الفريخ تركها لحليفه

٤ — البقاع

موسى الحرفوش . وفى السنة ١٦٠٦ انحاز موسى إلى سيفاً فى موقعة عراد فسلمها الأمير إلى يونس حرفوش ابن عم المذكور وعززه ووضعه تحت كنفه . بيد أن يونس خانة فى السنة ١٦١٣ التى سافر فيها الى تسكانا وقتل بعضاً من سكانه . ثم حشر نفسه فى السنة ١٦١٥ بين المعنيين وجركس باشا فتسبب بهدم قلعتى بانياس والشقيف . ثم توصل بنفوذهم إلى استرداد مقاطعة البقاع الذى كان قدسها . وفاز لابنه أحمد بكريمة فخر الدين وحمله على أن يزف ابنته المترملة إلى حسن ابنه الآخر . وعلى التوسط للمذكور بسنجقية حمص . وبلغ يونس حرفوش بتأييد الأمير مكانة كبيرة من الثروة والقوة .

ولما وجد فخر الدين قد فشل فى حملته على الأمير طرابيه صاحب غزة جمع عليه كل حساده ومنائيه وكتب إلى كرد حمزه رئيس انكشارية الشام ليتد معه . ف وقعت الرسالة فى يد فخر الدين . ولما رأى يونس حرفوش أن مكيدته قد انفضحت كشف القناع عن خيائنه ، وما زال بمصطفى باشا وإلى دمشق حتى حمله على نزع سنجقيتى صفد و نابلس من فخر الدين وعلى قيادة الجيش المتحالف لغزو لبنان .

وما بلغ الأمير ذلك حتى ترك فلسطين وأسرع برجاله إلى البقاع . واستنجد بآل شهاب أصحاب وادي التيم فانجدوه برجالهم .

وكان جيش دمشق وحلفاؤه قد بلغ اثني عشر ألفاً اجتمعوا في عنجر لالزحف على لبنان . فقسم الأمير جيشه المؤلف من أربعة آلاف إلى أربعة أقسام ، وأوقف الثلاثة في مواقع تحيط بالجيش الشامي ، وضرب بفرسانه مقدمة العدو ضربة مؤلمة ألوتها . فانكشفت مؤخرة فرسان الانكشارية وتقهقرت . وانتهر الأمير فرصة تضعضع العدو ونادى بالهجوم العام . فانقض اللبنانيون على الدمشقيين انتفاض الصقور على العصفير فزقوهم وأعملوا الضرب في أفضيتهم حتى أوصلوهم إلى بوابة المدينة ، ووقع مصطفى باشا أسيراً مع رايته . بيد أن الأمير في نشوة النصر ظل هادئاً محتشماً . فقبل ذيل الباشا وعين من يوصله سليماً إلى قب الياس . وترث حتى العصر ريثاً حمل جيشه الغنائم . وكانت وافرة . ثم ذهب لمقابلة الباشا . فاعتذر بهذا أن الحرب لم تكن برضاه وإن مسيلها كرد حمزة ويونس حرفوش وأباح له أرزاقهما . وولاه البقاع وجدد له سنجقيات صفد ونابلس وعجلون وزاد عليها غزه الخاصة بابن طرايه خصمه . قال الخالدي :

« وظل الدروز وأهالي كسروان وجبيل والبترون وبشري ووادي التيم يشتغلون في نقل الغلال نهاراً وليلاً حتى لم يبق أحد من رجال الأمير بلا مكسب » .

ولما ضم الأمير البقاع إلى ولايته تسنى له الاتصال بحلفائه الشهابيين أصحاب وادي التيم . وكانت أواصر القرابة قد تمكنت بين الأسرتين لما اقترن على معن بكر فخر الدين بجيهان كريمة الأمير علي الشهابي . وكانت على جانب كبير من الذكاء والادب والركة

فضل الأمير في بادئ الأمر تطويق طرابلس على ضمها لأنها كانت من طرابلس والكورة أملاك السلطان . وفي ٢٠ تموز ١٦٢٥ توفي يوسف باشا سيفاً منهوك القوى سياسياً ومالياً . وكان الأمير في فلسطين منهمكاً في ترتيب سنجقيات عجلون ونابلس وغزه . فاجعل في الاتفاق مع عرب تلك الجهات وأسرع إلى طرابلس فدخلها في كانون الأول وأمعن فيها نبهاً وسلباً طيلة أربعين يوماً . ولما عرضها الباب العالي عليه ، تظاهر بالتمنع قناعة وحشمة . بيد أنه بذل المساعي سرّاً حتى نالها باسم ابنه حسين الذي رزقه من زوجته علوه بنت الأمير علي سيفاً ابن أخى يوسف باشا سيفاً . وعين الشيخ أبانوفل الخازن وكيلاً له .



وحالما تسلمها جد في عمارها مصرحاً بقوله « أنا خربتُها وأنا سأعمرها ». قال الدويهي « فشئى ساقية القاع وعمر القليعات في أرض جون، طرابلس ونصب في مغرقها ١٤ ألف نصبة توت ونصب بستاناً أكبر من ذلك في أرض الحيصة ». وشجع بعض تجار صيدا على الانتقال إليها وكانت الكورة تابعة لطرابلس فضمها إلى ولايته وأخذ أهلها، وأغلبهم مالكيون، يشتركون في حملاته.

وهكذا تسنى لفخر الدين بسيفه ودهائه اتمام الوحدة اللبنانية التي تتمتع بها الآن الجمهورية اللبنانية،

## الباب الرابع

### التوسع في سوريا وفلسطين

١ - سياسة الأمير مع الباب العالي  
كان الأمير يكره الدولة العثمانية بصفة كونه لبنانياً ودرزياً ومعنياً، لأنها ظلمت بلاده وبني ملته وأسرته. لاسيما في السنة ١٥٨٤ لما اجتاحت جنودها الشوف وأعملت فيه نهباً وحرقة وقتلت من دروزه ستين ألفاً وغدرت بستمائة من عقالمهم، وسببت موت والده وخروج السلطة من يده، كما شرحنا سابقاً. وقد أقسم الأمير وبنو جلدته بأخذ الثأر. وثأر الدرزي لا يموت.

بيد أن الدولة العثمانية كانت سيده الشرق المطلقة، يرتعش لذكراها أمراء أوروبا أنفسهم مع ما بلغوا إليه من الحول والطول. فكان على الأمير، للوصول إلى غرضه من الانتقام والاستقلال، أن ياجأ إلى التسامح والتحصن والتأمر سرّاً. وإلى المداينة ظاهراً.

كان يتوسع ويثري على حساب جيرانه، ويتحالف سرّاً على الدولة العثمانية مع الأمراء الأوروبيين والعصاة الشرقيين. وإذا مر بجواره وزير من وزراء الدولة أسرع إلى إرسال الوفود إليه بالثمن والمال. فيشتري بهذه الطريقة ضمائر الوزراء وصادقهم وحمايتهم ويبدد

ظنّونهم به ، متظاهراً بالطاعة للباب العالي والتعلق بأهداب السلطنة العثمانية حتى إذا بعد ظلمهم عاد إلى مضايقة جيرانه والتآمر على الدولة .

على أنه كان معتدلاً في عدائه ، فقد كان يتحاشى المجازفات بلا طائل ويمتنع عن مساعدة أعدائها إذا لم يكن واثقاً من نجاحهم . بل كان ينصحهم دائماً بالتؤدة والتعقل .

سبق القول عن قيامه بتسديد الأموال الأميرية في مواعيدها ؛ وأحياناً سلفاً ، محافظة على مركزه وتبديداً للظنون الحائمة حول أغراضه في التوسع والتحالف مع أمراء الدول الأوروبية . ولما كانت الحزينة العثمانية بحاجة دائمة إلى المال ، فكانت دقته في الدفع تفوز له دائماً بالرضى لدى الباب العالي ، وبما يشتهي من المقاطعات والامتيازات .

ولم يكن يكتف بما عليه من الأموال بل كان يضيف إليه تقادم خاصة للسلطان وعظائمه . ولما كان الجميع راضين ببيع ضمائرهم لم يكن يحجم عن شرائها .

وكان له بينهم من يتكفل الدفاع عنه والسعي في قضاء مصالحه . وإذا فاز بمنصب عال تذكر هذا الكبير خدمات الأمير له فيقوم بدوره بمساعدته . كما جرى لمحمد باشا القبودان الذي مربيون البحر معزولا عن ولاية مصر « فخدمه الأمير بشيء كثير » حتى إذا تولى الصدارة العظمى في السنة ١٦١٤ م كان نصوح باشا ، عزل أحمد باشا الحافظ خصم الأمير وولى مكانه جركس باشا وأوصاه بالأمير وأهله خيراً . فأطلق الست نسب والدة نحر الدين التي كانت محجوزة في دمشق وكتب اليه وهو في تسكانا ليرجع إلى ولايته . ولما استبسطه عين ابنه الأمير علي مكانه .

وهذا لا يعني أن الأمير كان يأمن جانب هؤلاء . فقد كان يحاذر الاجتماع بهم . ويكتفي بارسال الوفود والهدايا اليهم دون أن يقابلهم . ففي السنة ١٦١٩ بلغ الباب العالي ما أقدم عليه بعد رجوعه من إيطاليا من نهب طرابلس وتخريب عكار وبناء قصر حصين في صور فأوفد على باشا بالعمارة العثمانية إلى لبنان . ولما بلغ هذا صيدا بعث اليه الأمير بكمية وافرة من المؤن وبخمسـة آلاف قرش هدية ، فنزل الباشا المدينة وأرسل يؤمنه على نفسه ويستدعيه لمواجهته . فبعث الأمير بمن يقول له بصراحة « ان حضرتُ ومسكنتي حدثتَ بعهدك ، وان لم تمسكني جلبتَ عليك لوم الدولة » . فاقنع الوزير بهذا الجواب وتركه وشأنه .



وكان له في الاستانة وفي دمشق وكلاء من أكابر القوم يعملون لمصلحته برواتب معينة فيطلعونه على مجرى السياسة العثمانية وتطوراتها وأحوال السلاطين والوزراء والولاة والتهنئات الواردة اليهم بحجة ، والمكائد التي تدبر عليه .

وكان يوفد كل سنة واحداً أو أكثر من كواخيه المجدين اللغة التركية للاتصال بالكبراء والقوز منهم بما يرنو إليه من سنجقيات وامتيازات، مثل الحاج كيوان بن عبد الله الذي رافقه الى تسكانا، ومصطفى بك كتخدا الذي اصطحب الأمير ابنه معه إلى هناك ثم سعى له بولاية جبلة واللاذقية وسلمه سنجقية نابلس . والحاج دوريش آغا الذي فاز له بلقب «سلطان البر» وغيرهم .

جاءت هذه السياسة الرشيدة بأبهر النتائج . فتحت أمام الأمير باب  
٢ - التوسع في فلسطين  
التوسع في فلسطين وسوريا على مصراعيه فأنشأ ملكة عظيمة ، طالما حلم بها ويحلم بها الوطنيون ، تضم دول سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن . بيد أن لبنان كان سيدها ، وأميره سلطانها . وإليك طريقة تكوينها .

١ - صند — كانت قاعدة المنطقة المنبسطة بين الناقورة وحيفا ونهر الأردن الخارج من جنب لبنان . يدخل في نطاقها الجليل كله بما فيه عكا والناصرية وطبرية والقفولة والحولة ، وسهولها المروية من النهر المذكور . تولى الأمير هذه السنجقية سنة ١٦٠٢ وأحل المرسلين الافرنج في الناصرة وعكا وطبرية . وقد وصف الخالدي حالة البؤس التي كانت فيها ، ما صارت إليه على يد الأمير من الرخاء والأمن والعدل . وكان قد اتخذ في بادئ أمره لقب «أمير صيدا والجليل» ودعاه البابا بولس الخامس سنة ١٦٠٩ والبارون دهاى سنة ١٦٢٤ «أمير فنيقية وفلسطين» .

٢ - عجلون وغزة ونابلس وهوران واللجون — كان الأمير يرنو الى هذه المقاطعات بعين الشوق ليمتدح من أورشليم فيطوقها ويحل أمير تسكانا حليفه فيها فيستعين به على الدولة العثمانية . ولما كان في بادئ الأمر مشغولاً بمشروع الوحدة اللبنانية اكتفى بأن يسلم هذه السنجقيات الى حلفائه . وبعد أن وحد لبنان سعى في ضمها إليه .

كان يتنازع سنجقية عجلون اخوان من آل قنصوه : حمدان حليف الأمير ، وبشير حليف عدوه طراييه صاحب غزه . وكانت المشادة على سنجقية حوران والجولان واللجون

واقعة بين قبيلتين : عرب المفارجة ، وعلى رأسهم صديقه الشيخ عمر ، وعرب السردية وعلى رأسهم الشيخ رشيد .

غير أن تدخله في منازعاتهم ومشاكلهم جر عليه متاعب شتى منها غضب الدولة عليه سنة ١٦١٣ ، والحملة التي جهزتها ضده ودفعته إلى المنفى في إيطاليا .

لذلك نراه بعد عودته من إيطاليا عاملاً على إلحاق هذه المقاطعات بمملكته رأساً . فنال في السنة ١٦٢٢ من خليل باشا سنجقية عجلون باسم ولده حسين . وفي السنة التالية فاز بسنقية نابلس . وبعد نصرة عنجر أقره مصطفى باشا والي دمشق عليهما وزاد له سنجقية غزه .

في السنة ١٦٢٥ بعد موت يوسف سيفا باشا تقرر ت بسلاد بعلبك على ٣ - التوسع في سوريا الأمير . فقصده إليها ولما شعر يونس حرفوش بقدمه هرب بعياله إلى حلب . ثم ركب مصطفى باشا صاحب طرابلس على بيت سيفا واستدعى الأمير إلى نجاته . فزحف الأمير على البقاع واللوه والهرمل . وكان سليمان بن سيفا متحصناً في صافيتا ، فلما علم بمجيء الأمير سار إلى سلبه ليستعين بالأمير مدج فطرحة هذا في نهر الفرات . وطلب أولاد سيفا رضى الأمير فسلوه قلعتي الحصن والمرب . فطلب خاطره عليهم ومنع عنهم باشا طرابلس .

ثم دخل مدينة سلبه وهدم سورها وملك قلعتها . وحكم مدينتي حماة وحصن وسلبها لجماعته . ولما قدم خليل باشا إلى حلب ليركب على الأمير طلب منه تسليم قلاع الحصن وصافيتا وسلبه وشميميس . وكان يونس حرفوش يخرج صدر الوزير عليه واشترط على نفسه إن سلم الأمير القلاع فليقطع رأسه . فسلم الأمير القلاع وقطع الوزير رأس ابن الحرفوش . وهكذا تخلص الأمير من عدويه الألدن حرفوش وسيفا وأولادهما . فصفا له الجو وعاد إلى التبسط وراء حدود لبنان .

وأفادنا الخالدي أنه بعد أن تلقى سنة ١٦٢٤ من الاستانة الخط الهايوني بأن يكون متولياً على دائرة عربستان من حد حلب إلى حد القدس مع لقب « سلطان البر » سار بتسعة آلاف من سكانه وخمسة آلاف من اللبنانيين من بيروت إلى نهر ابراهيم إلى البترون



إلى عكار إلى جبله فقدم له الجميع الطاعة والذخيرة . وبعد أن نظم أحوالهم وطيب خواطرهم توجه إلى أرض الشجر وطالب أهالي العمق وبيلان بالذخيرة . فقدموها وحضر إلى عنده والي حلب وطلب صفو خاطره وقدم له ثلاثين ألف ذهب وألف حمل ذخيرة لينكف عن حلب ، فأكد الأمير للحلبيين أنه لا ينوي أذيتهم بل يكتفي بجوالي النصارى ، فقدموها له . ثم عاد إلى حمّاه ونادى بالآمان فقدموا له خمسين ألف غرش .

ولما طلب الذخيرة من عرب الأمير مدج أطاعوه ، أما الذين كانوا من هوى الأمير فياض فرفضوا . فركب عليهم بالخيـل سلط وما زال يطاردهم ثلاثة وعشرين يوماً حتى قطعهم النهرين . ثم أخذ في عمار قلعة شمال قلعة الشاميس الحلبية وأخرى فوق انطاكية . ولم ينتقل حتى أتمهما . ثم عاد إلى بعلبك ورمم القلعة وجعلها بالرجال والذخيرة . وارتحل إلى بر الياس حيث هدم حارة صهره حسين بن يونس حرفوش لأنه خانه . وانتقل من هناك إلى وادي التيم حيث قدم له آل شهاب الذخيرة . ورحل إلى بانياس واستقام يعمر القلعة . وجمع الذخيرة من بلاد القنيطرة وقرايا الشام .

وانقطع البر من الشام فصار غلاء . فاستصرخه أهلها فبعث إليهم من حوران بألف جمل محملة قمحاً . فخرجوا لملاقاته ، ودعوا له بالنصر . ثم جاء إلى دير القمر وأمر بإصلاح السرايا . وعاد إلى بيروت .

وهكذا تسنى لبطلنا بجرأته وحسن إدارته وسياسته أن يصبح سيد سوريا وفلسطين وشرق الأردن فضلاً عن لبنان . وأنه لا مريد في التاريخ ، إذا استثنينا جده نحر الدين الاول ، أن يأتي دمشق وحلب بأمر أمير لبناني . ولننظر الآن في سياسته الخارجية مع الدول الغربية .

## الباب الخامس

### سياسته مع دول فرنسا واسبانيا ومالطة

١ — سياسته الخارجية ضاق الشرق عن نشاط نحر الدين السياسى . فتطلع إلى الغرب ، لان الميدان الشرقى على سعته ، لم يكن كافياً لمراميه الوطنية البعيدة ، لسيطرة الدولة للعثمانية عليه .

كان عالماً أن العبرة ليست في إنشاء دولة عظيمة تضم سوريا وفلسطين وشرق الأردن وجزءاً من الأنفلول إلى لبنان فيصبح هذا الجبل الأشم قلبها النابض ومقلها المنيع ، بل العبرة كلها في تأمين هذه الدولة بكيانها ورفاهيتها من جور آل عثمان وتقلبهم .

لما استولى في السنة ١٥٩٣ على صيدا ، ميناء فينيقية الشهير ، انفتحت أمام بصره الحاد نافذة مظلة على المحيط اللازوردى ، الذى يصل أوروبا المسيحية بالشرق العثماني . ففكر بأن يعيد إلى أمراء الغرب مملكتى اورشليم وقبرص الصليبيتين فيضع في جانبه حلفاء امناء أقوياء ، يؤمنون فتوحاته برأ ، ويحمون شواطئه بجرأ ، ويجهزون جيشه بالأسلحة الحديثة ، فيتسع له الوقت لا نشاء أسطول لبناني . يجعله سيد ذلك البحر ، بعد أن أصبح هو سلطان البر . هذا فضلا عن الفوائد الأدبية والمادية التى يجنيها من مخالفة تلك الشعوب الراقية . فترقى شعبه في العلوم وفى الاقتصاديات زراعة وصناعة وتجارة . هذه الفوائد لم تخف على عقله الراجح فعمل منذ اعتلاء عرش أجداده على الوصول إليها لمصلحة وطنه وأسرته . لذلك نجده منذ اتصاله بالأوربيين محتفياً بهم ، متودداً اليهم ، مساعداً لهم في مهماتهم . كان وياهم قلبين يتفاهمان ويتحابان لأول لقاء . وكان مخلصاً في صداقته كما تشهد المعلومات التاريخية الواصلة إلينا .

مال إلى الموارنة وحالفهم وساعدهم في نهضتهم القومية والدينية ، فضمن مساعدتهم على يوسف سيفاً باشا عدوه وعدوهم ، ووساطتهم لدى الكرسي الرسولى وعواهل أوروبا . عطف على الأوربيين وخاصة على مرسلهم ، فاكسب محبتهم واعجابهم ومؤازرتهم ، وصداقة



أمرائهم وملوكهم ، الذين أسرعوا فعرضوا عليه خدماتهم . بادلهم بارتياح الخدمات والصداقة وحالفهم على آل عثمان أعدائه وأعدائهم . وقد صرح لهم لما كان ضيفاً على دوق تسكانا « انه لم ينقطع يوماً عن العطف على المسيحيين واحترامه لهم وانه مستعد أن يبذل في سبيل العهود التي قطعها لهم ماله ورجاله وملكه وحياته » .

إنما كان يستحيل عليه أن يضع ثقته كلها بجميعهم على السواء . لقد اقسم بالثأر من بني عثمان والسعى إلى خلع نيرهم وكسر شوكتهم ودك عرشهم . فهل يأمن على غرضه جانب الدول الأوروبية حليفاتهم ، مثل فرنسا وانكلترا والبنديقية وهولندا ؟ فكان طبعاً أكثر ميلاً إلى الدول المعادية لآل عثمان ، مثل تسكانا والكروسي الرسولي واسبانيا ومالطة وهنغاريا . ومع ذلك فقد عامل بالحسنى رعايا الجميع ، ولم يهمل صداقة أحد منهم ، وحقق الاستفادة من جميعهم أدبياً ومادياً وسياسياً .

وللستعرض الآن علاقاته بهذه الدول :

٢ - فرنسا كانت علائق الأمير بفرنسا باديء ذي بدء مخصصة ، لكونها أمة مسيحية كاثوليكية ، ولصلة القرى بين أسرهما المالكة وعاهل تسكانا حليفه . لان ماري مديشى زوجة هنري الرابع ووصية عرش فرنسا كانت ابنة اخ صديقه فردنان الأول غراندوق تسكانا . فكان يظن ، ولعله مضىب في ظنه ، ان محالفة فرنسا لآل عثمان وليدة المصاحبة . ففي السنة ١٦٠٨ لما جاءه هيبوليت ليونسني ، Lionciny مندوب الفراندوق المذكور ، ليعقد معه معاهدة حرية ، رضي الأمير بأن يحضر القنصل صيدا الفرنسي جلساتها السرية ، وذهب إلى تكليفه قراءة رسالة الفراندوق وتعريبها . ولما أكد له السفير التسكاني رغبة مولاه وملك اسبانيا في شد ازره بحملة حربية تحتل الاراضي المقدسة ، نهض القنصل المذكور وجاهر باسم ملك فرنسا باستعداده هو أيضاً لمشاركتهم في هذه الحملة .

وفي السنة ١٦١٣ اصطحب هذا القنصل معه إلى تسكانا . وكان يطلعه على أسرارهِ ويشركه في المخبرات الدائرة بينه وبين الفراندوق . وفي السنة ١٦١٤ كتب الأمير إلى ده بريف De Brèves سفير فرنسا لدى الكرسي الرسولي يسأله التوسط لدى الخبر الاعظم في مشروع استعادة ولايته ، ويذكره بتحدر الدروز من بقايا الفرنسيين الصليبيين المتأخرين

في الشرق، وبأن الأسرة المعنية من سلالة الملك غودفرواده بويون Godefroy De Bouillon فاتح القدس .

واستكتب وهو في تسكانا الحاج كيوان رسالة إلى ملك فرنسا يخبره بأمره ويستأذنه في مقابلته ليصلح حاله مع السلطان . غير أن الملك أبي استجابته . فتأثر الأمير من رفضه وتخلص من قنصل فرنسا الذي كان في معيته . وفي السنة ١٦١٨ لما نال الأمير من السلطان العفو واذن له في الرجوع إلى ولايته ، عاد إليه القنصل المذكور وهو في نابولي برسالة من ملك فرنسا يدعوه فيها إلى بلاطه ليتعرف إليه ويوصى به السلطان خيراً . فاعتذر الأمير ، بالرغم من خلافه مع حاكم نابولي وشدة ضيق ذات يده .

وفي السنة ١٦٢٣ كان قنصل فرنسا في صيدا ممتعضاً من تعلق الأمير بعاهل تسكانا ومساعدته رعاياه وترويجه تجارة بلاده ، فجاهد في تحويله عن الغراندوق إلى مولاه عارضاً عليه خدماته مبنياً له سطوته وثروته ونفوذه . فاجابه الأمير ببرود « انا مستعد دائماً لخدمة جلالته » .

ومع ذلك لم ينقلب الأمير على الفرنسيين المقيمين في مملكته . بل كان يحميمهم ويراعي مصالحهم طبقاً لخطته العامة . وقد شيد لهم في صيدا خان الفرنج حيث كان يقيم قنصلهم وكاهنهم وتجارهم . وفي السنة ١٦٢٠ لما سأله قنصلهم تاركيز Tarquez الاذن للآباء الفرنسيين في سكنى الناصرة وتجديد بيت العائلة المقدسة ، استخرج لهم فتوى شرعية بذلك ورافقهم حتى الناصرة ونقدمهم مالاً لاقامة المعبد وأوصى بهم سكانها خيراً .

وفي السنة التالية اذن للآباء اليسوعيين الفرنسيين في سكنى الناصرة نزولاً عند طلب البارون دهاى Deshayes سفير فرنسا الغير العادى . وفي السنة ١٦٢٢ سمح للآباء الكبوشيين الفرنسيين بانشاء الرسالات في لبنان استجابة لسؤال سفير فرنسا في الاسكندرية . وكان ملك فرنسا لا يفتقر عن مكاتبته وتوصيته برعاياه وقد نفحه بلقب « الأمير الكلى الشرف والسطوة » المحفوظ للصدر الاعظم .

ليس لدينا معلومات تستحق الذكر عن علاقات نجر الدين ببقية الدول الاوربية حليفة تركيا ، مثل انكلترا وهولندا والبندقية . والقليل الذى



عرفناه خال من الصفة السياسية ، وعائد إلى مراعاته تجار هذه الدول ، مما لا يخرج عن خطته الرشيدة في هذا الصدد .

أما علاقاته بدولة اسبانيا ، أقوى دولة أوربية في ذاك العهد ، فكانت سياسية أكثر منها تجارية ، وما اتصل بنا منها يدل على أهميتها . فقد سبقت اسبانيا بقية الدول الغربية في عرض خدماتها عليه ، واهداء الذخائر والاعتدة الحربية إليه . وضافته ثلاث سنين في صقلية و نابولي ، ورسمت معه خطوط معاهدة ترمي الى احتلال الاراضي المقدسة .

ان وقوف نجر الدين ، سنة ١٦٠٦ في جانب علي باشا جانبولاد ، المتمرد على الدولة العثمانية ، لفت اليه أنظار عواهل أوربا المناوئين لهذه الدولة والطامعين في أملاكها ، خاصة الاراضي المقدسة وجزيرة قبرص . فأخذوا يخطبون وده ويعززون به بأحدث طراز من الاسلحة ؛ ويعرضون عليه أساطيلهم وخبراءهم ، لنيل أربه وأرهم من تلك الدولة .

فوالى السنة ١٦٠٧ أهدى إليه نائب الملك الاسباني في نابولي مجموعتين من المدفعية وكية من البنادق وغير ذلك من المهمات الحربية . وعرض عليه ملك اسبانيا أن يشيد له حصناً منيعاً في ميناء صور وأن يضع تحت تصرفه ما شاء من الرجال ومن القوى البحرية .

ولما رآه قد لجأ في السنة ١٦١٣ الى غراندوق تسكانا داخلته الغيرة ، وما زال حتى استدرجه الى صقلية التابعة وقتئذ لتاجه ، حيث استقبله نائبه في ميناء مسينا استقبال الملوك وأنزله قصرآ فخماً مشرفاً على البحر ، وعين له معاشاً يومياً . ولما وقف على رغبته في زيارة لبنان ، ورأى أن هذه الرحلة توافق غرضه من تحويل الاسطول العثماني عن شواطئ صقلية وكالابريا ، قدم له غليوناً من مراكبه الحربية واستبقى أسرته لديه . فتسنى للأمير رؤية بلاده والاطلاع على تحسن حالتها على أثر مصرع نصوح باشا خصمه . وعاد بعد سبعة أشهر الى بالرمو حيث انتقلت أسرته بانتقال النائب إليها . ولما تبين أطوار هذا النائب الشاذة ، وفهم أن غايته الاستعانة به على اقتطاع سوريا وفلسطين ولبنان لدولته تخلص منه بالحسن وعاد الى بلاده شاكرآ ضيافته وحمايته .

وفي السنة ١٦٢٣ تلقى من الدرق البوكركي Albuquerque نائب ملك اسبانيا في صقلية ، رسالة ودية تتضمن مشروع مؤامرة على تركيا حملها اليه رسوله الخاص . فأجابته

موافقتنا على مشروعه واهدى إليه اثنين وثلاثين أسيراً مسيحياً أكثرهم من الاسبانيين . وفي السنة عينها أوفد الأمير المطران جرجس بن مارون الأهدق سفيراً لدى الكرسي وغراندوق تسكانا للاتفاق على تخليص الأراضي المقدسة ، وأوعز إليه أن يعرج في عودته على ملك اسبانيا . وفي السنة التالية أعاد الأمير سفيره المذكور إلى أوروبا لكي ينهي المحالفة مع عواهلها وخاصة عاهل اسبانيا لاحتلال الأراضي المقدسة وكسر شوكة العثمانيين .

وفي السنة ١٦٢٨ رجع إليه موفد الدوق البوكركي برسالة منه سر بها السرور كله لأنها أنبأتها بالاستعداد الجارى للحملة المنشودة . فكتب له سرّاً في الليل بخط يده . وأخبره بانكسار العثمانيين أمام الفرس وخسارة نصف بلادهم ، وان أعباضه باشا الثائر قتل من جنودهم ماينوف عن أربعين ألفاً . وانه هو قد أخذ منهم حصارات وقلاع كثيرة وان ليس للأتراك عمارة الآن تجول في البحر . وأردف بقوله « أما نيتنا فلا تتغير والسكلام الذى يبلغكم إياه رسولكم معقول . فاعملوا به مولاكم ، وبعد هذا السكلام ما لكم عتب علينا » .

جاء الاستقبال الحافل ، الذى أعده للأمير فرسان القديس يوحنا أصحاب جزيرة مالطة ، لما مر بها في السنة ١٦١٦ في عودته من لبنان إلى ايطاليا ، دليلاً على شهرته الواسعة في الغرب ، وعلى علاقاته السابقة بهم . فقصد أنبأنا الأب روجيه « أنه كان يسمح لقرصانهم بأن ياجأوا إلى موانئه وأن يستفكوا الأسرى المسيحيين ، ويعيدوهم إلى أوطانهم على متن سفنهم » .

وقد وصف كاتب رحلة الأمير إلى ايطاليا هذا الاستقبال بقوله « وأرسلوا عزموا الأمير على النزول عندهم . فأرسلوا له قايق نخيم بالحرير وصفوا له أكابر الناس من البحر إلى قصر كران مايطرو حاكم مالطة . ولما طلع ضربوا له جميع المدافع في القلعة والأسوار . ولما وصل إلى عند الحاكم لاقاه ورحب به ، وبقي عنده ثلاثة أيام بالاعزاز والاكرام . ونزهوه وفرجوه على خندق المدينة الذى عملوه جديد ، وهو عظيم في العمق والوسع . وفرجوه على الماء الذى جلبوه للبلد من موضع بعيد ، وعلى الجبخانه المغطية لأن لها خدام يخدموها ومع كبرها ما فيها شئ من الصدا من هواء البحر . وعاملين طواحين الهواء . وطلبوا من الأمير أن يعملوا له ضيافة في بستان كران مايطرو لأنه من عجائب الدنيا فامتنع لئلا يصير لهم كلفة زائدة ولا محاولة . وودعهم واستكثر بخيرهم ونزل للظيئون . فأرسلوا له على



نوع الزوادة من الغنم والدجاج والملبسات والمحليات ومن البهارات والخبز والحضار  
شئ زائد»

ولا يعقل أن يمضى هذا الاستقبال المسمى دون أن يخلق أو يدعم صلوات متينة بين  
الأمير وهؤلاء الفرسان . لا سيما أن غايتهم من مشاكسة آل عثمان وخضد شوكتهم  
كانت مطابقة لغايتهم . وهذا ما يفسر لنا سماحة لسفهم باللجوء إلى موانئه وتمون الزاد والماء  
منها واعتاقه أسراهم . ويقول الأب روجيه أن صلواته بقواد قرصان مالطة وليفورنو  
كانت من أكبر الشكايات التي قدمت عليه للباب العالي سنة ١٦٣٣ . وروى المذكور عن  
الأمير أنه عقد النية قبيل هذه النكبة على تسليم ابنه منصور ومليوناً من الفرنكات  
الذهب إلى قائدين من فرسان مالطة ، كان مركباهما راسيين في ميناء حيفا ، لا يصلها إلى  
غراندوق تسكانا .

## الباب السادس

### الكرسى الرسولى

ان ميل نحر الدين الى المسيحيين واحترامه اياهم ، وإعجابه برقيهم واستقامتهم وعدالة  
أمرائهم ونظام ممالكهم ، والفائدة الأدبية والسياسية التي كان يرجوها لوطنه من صداقتهم  
ومخالفتهم ، حملته على وضع ثقته وآماله بدول أوروبا المسيحية القوية ، الغنية ، عدوة آل  
عثمان الطبيعية . فضلا عن اعتقاده بتضامنها في طموحها إلى الأراضي المقدسة تحت رئاسة  
رئيسها الروحي الأعلى . وكان يحل الخبر الأعظم مكانا سامياً من الاعتبار ويعتقد بنفوذ  
كلمته على جميع الدول النصرانية . وقد وصفه في كتاب وجهه في السنة ١٦١٤ الى ده بريف  
سفير فرنسا لدى الفاتيكان بذلك « الشخص العظيم ، الذي يطيعه الامراء والملوك والباطرة  
وينظرون على قدميه خاضعين لادنى اشارة تصدر منه . ذلك الإله الارضى صاحب  
السلطة العليا ، الفريدة على الارض ،

فان توصل بواسطة الكرسي الرسولي أن يستدرج قوى أوروبا الى الشرق أمن على مملكته من الخطر العثماني ، الذي كان يهدد كيائها .

أما الكرسي الرسولي فكان من جهة يقدر للامير حمايته للرسائل خاصة وللمسيحيين عامة ، لا سيما الموارنة ، كاثوليك الشرق الوحيدين في ذلك العهد . وقد أصبحوا همزة الوصل بين الامير والبابا وأمراء الغرب . فكان الاحبار الاعاظم يجتهدون بأن يوطدوا عقيدته بسلطتهم العليا ، ولا يدعون الفرصة تفوت دون أن يظهروا له شكرهم وعطفهم على مهمته السياسية ، ساعين لدى الامراء ، الذين تبقى لهم عليهم بعض النفوذ السياسي ، كعاهلي تسكانا واسبانيا ، على شد أزره في مشروعه .

وهاك كلمة وجيزة في هذه المساعي .

كانت رابطة نثر الدين بالكرسي الرسولي متصلة برباطه مع دولة  
١ - بولس الخامس تسكانا ، فتمشت معها ثم تطورت وتوثقت .

كان الكرسي الرسولي قد حرم على عواهل النصرانية تصدير الأسلحة إلى الشرق ، خوفاً من أن تنفع بها الدولة العثمانية . لكن بعد أن سمح اكليمنضوس الثاني وبولس الخامس لغراندوق تسكانا وملك اسبانيا باهداء الأسلحة إلى نثر الدين وإلى حليفه على باشا جانبولاد وجه بولس الخامس سنة ١٦٠٩ ، بناء على طلب الغراندوق ، كتاباً خاصاً إلى الامير لقبه فيه « بقائد الدروز النبيل ، وأمير نيقيميدية وفلسطين وفنيقية » وأرفقه بهدية « عربوناً لحيته وشكراً له على العطف الذي يبديه نحو المسيحيين ، وخاصة الموارنة » . وأكد له استعداداه لتأييده ضد عدو الفريقين « . وختم « سائلاً المولى هدايته الى طريق الحق »

وكتب أيضاً في السنة ١٦١٠ الى النظيرك الماروني يوحنا مخلوف ، معرباً له عن سروره من أن « نثر الدين الامير التقدير الباسل المنحدر من قواد اورشليم ، وعدو الأتراك اللدود يواصل حمايته له ولملته » . حاثاً إياه « أن يرعى صداقته ويقف هو وشعبه في جانبه ، ل يتمتع بحمايته ، ويساعده على تخليصه وأمته من ظلم الأتراك ، ويجتذبه إلى يسوع المسيح » . بلغت هذه الكلمات الرقيقة الامير في الوقت الذي كان الباب العالي يجهز عليه حملته ففكر أن يتصل رأساً بالكرسي الرسولي ، اعتقاداً منه أن عهداً يقطع له صاحب هذه السلطة



العليا ، يربط أوربا بالمسيحية كلها . وكان البطريرك الماروني يوحنا مخولف قد استقر في مجدل معوش تحت حماية الامير . ولما اقترب بزيارته الرعائية من صيدا استدعاه الامير اليه وفتحه بهذا الكلام « سمعت أن في رومية أميراً تخضع له أمراء وملوك كثيرون ويلبون أدنى اشارة تصدر منه . انظر اذا كان راغباً في الاراضى المقدسة ، فقد أقسمت واقسم أنى أقدم له موائى وأشد ازره بكل قواى ضد الاتراك » . فوضع البطريرك تحت تصرفه المطران جرجس بن مارون الاهدنى . فأوفده الامير في السنة ١٦١١ الى ايطاليا للاتفاق مع الكرسي الرسولى ودولة تسكانا على هذا المشروع الخطير .

وفي السنة ١٦١٣ لما قصدت الحملة العثمانية الى لبنان أبحر فخر الدين قاصدا الى رومية . بيد أن الرياح حملته الى ميناء ليفورنو Livorno بدلا من شيفيتا فكييا Civita Vecchia ميناء الدولة البابوية . وما استقر به المقام في فلورنسا حتى كتب الى بولس الخامس يطلعه على مشروعه ويقدم نفسه لخدمته . بيد أن قلب هذا الخبر الكبير كان مفعما حزناً لانقسام الملوك المسيحيين على بعضهم . فاستصوب تأجيل الحملة «فهى ان لم تكن كفوا لسحق عدو قدير بعيد كالاتراك ، لا تجدى سوى احراج صدورهم على المسيحيين » .

٢ - أوربانس الثامن ولما تم لفخر الدين انجاز الوحدة اللبنانية والتبسط في سوريا وفلسطين وأصبح على قاب قوسين من اورشليم ، أوفد سنة ١٦٢٣ المطران جرجس مارون المذكور الى أوربانس الثامن يهنئه بانتخابه ويعرض عليه مشروع « تخلص الشرق » . فاكثفى الخبر الاعظم بتوصية ملك اسبانيا بسفير الامير .

وفي السنة التالية ١٦٢٤ كتب الامير اليه رأساً حاثاً إياه على السعى في الاستيلاء على الاراضى المقدسة لتضعضع الدولة العثمانية . ووضع تحت تصرفه جيشه « الذى برهن على قدرته بانتصاراته الاخيرة » . وعرض عليه أن يقصد بنفسه الى رومية لترتيب الحملة وقيادتها . واستكتب بهذا المعنى البطريرك يوحنا مخولف الماروني والشيخ أبا صافى الخازن الذى ولاه جبة بشرى .

فاهتم أوربانس الثامن للامر وأوفد الاب توما من نوفارا حافظ القدس السابق لىفاوض دوق تسكانا بهذا الصدد . على أن التنافس والتحاسد بين أسرقى مديشى وبربرينى

أسرق الغراندوق والبابا شل المشروع في ولادته . فأجاب أوربانس الأمير في ٦ ايلول سنة ١٦٢٥ مهتماً اياه على انتصاراته « التي واصل بها حروب الصليبيين أجداده » وأفهمه بلطف العبارة ، أن أحوطل أوربا المضطربة لا تسمح بالسعى وراء مشروعه النبيل . وكتب أيضاً إلى البطريك الماروني « مبدياً أسفه لعجزه عن انتهاز الفرصة المواتية التي عرضها عليه أمير غير مسيحي ، جعل بلاده ملجأ لمسيحيي الشرق من عواصف الأتراك الهوجاء » .

وفي السنة ١٦٢٧ عاد الأمير فأوفد المطران جرجس بن مارون نفسه لعله يفلح هذه المرة . فقرر الكردينال فرنسيس بربريني ابن أخي أوربانس الثاني ايفاد حملة استكشاف إلى لبنان تنق على حقيقة نيات الأمير وعلى قوته الحربية وتتفهم تفاصيل مشروعه .

وكلف المطران جرجس بن مارون تقديم هداياه وهدايا البابا ، وأرسل الخبر الأعظم إلى كل من الشيخ أبي نادر الخازن « قائد جيش الأمير » والشيخ أبي ظاهر حبش « خازنه » ، درعا وسيفاً مكرسين . وكتب البابا إلى البطريك يوحنا مخلوف في ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٦٢٨ مظهراً أسفه « لعدم امكانه انتهاز هذه الفرصة الثانية التي قدمها الأمير عن كرم نفس ، لتخليص أمته والأراضي المقدسة ، على أنه لم يفقد بعد الأمل بأن يتمكن الأمير يوماً أن يقوم وحده بهذا المشروع » .

لما عادت العبارة العثمانية عن لبنان في خريف السنة ١٦٣٣ أرسل الأمير ٣ - اتفاق السنة ١٦٣٤ نداء أخيراً إلى دول أوربا لتنقذ لبنان والأراضي المقدسة والنصرانية من شر هذه الحملة . واستحث المطران جرجس مارون على السعي في التوفيق بين أمركي مديشي وبربريني مقترحاً ، إذا نجحت الحملة ، أن يتوج غراندوق تسكانا ملكاً على أورشايم وتادى بربريني ابن أخي البابا أميراً على قبرس . ووعد الأمير « باشهار نصرانيته وتعميد أسرته وذويه ، وحمل أمته وحلفائه على الاقتداء به » . فتصبحت دولة لبنان معقلاً للكنيسة في الشرق وحليفة مخلصة للملكتين الحديثتين . وتعهد الأمير أيضاً « بتقديم المؤن والرجال ليشد أزر الجيش المسيحي ، ووضع موانئه ومقدراته تحت تصرفه ، وتسليم أورشليم إلى الغراندوق يدأ بيد . على أن يبعثوا اليه بمحاجته من الأعتدة والذخائر الحربية وعلى الأخص المدفعية . واسطولاً مؤلفاً من زهاء خمسين قطعة تحتل جزيرة قبرس ليحمي السواحل اللبنانية . وهو يتكفل أن يقف وحده في البر بوجه جميع القوات العثمانية » .



ويظهر من الوثائق التي طالعناها ونشرنا بعضها في الجزء الأول من كتابنا عن نجر الدين أن السفير نجح هذه المرة باقناع البابا والغراندوق على العمل جدياً للبشروع . بيد أن التجهيزات عاقت وصول الحملة إلى لبنان في الوقت المناسب . أما الأمير فلما مل الانتظار ووهنت عزائمته لمصرع ابنه الأمير علي في هجوم جنوبي قام به على الجيش العثماني ، مال إلى شور بعض عظمائه واتفق مع أحمد باشا بك قائد الحملة وريبيه على مال جزيل وتسليم قلعتي صيدا وبيروت . بيد أن هذا الحائن بعد أن تسلم المال والقلعتين قبض على سيده وعلى ولديه في خريف السنة ١٦٣٤ عنها ، وقادهم إلى الاستانة حيث قطع رأس الأمير في نيسان سنة ١٦٣٥ وقتل أولاده ونساؤه .

فهرب الشيخ أبو نادر الخازن إلى رومية واستغاث بالكرسي الرسولي ليسعى في تخلص الأمير ملحم إن أخ نجر الدين ، والمتبسمين أبي اللمع أصهاره . فحمل الكرسي الرسولي الغراندوق على إيفاد مركب حربي إلى لبنان لهذا الغرض . بيد أن استعادة الأمير ملحم حكم عمه بالقوة ، أوقف المساعي التي تجددت في إيطاليا لشد أزرا آل معن .

وفي السنتين ١٧٣٢ و ١٧٣٣ ، بعد مضي قرن كامل على هذه الفاجعة ، بذل الكرسي الرسولي الجهود والنقبات لتحصيل مال أودعه نجر الدين في السنة ١٦٣٢ مصرف الرحمة بفلورنسا باسمه واسم ورثته . وكان قد بلغ آتئذ أربعة عشر ألف سكوت .

فالكرسي الرسولي عمل ما بوسعه في سبيل الأمير وورثائه ، ولولا حرب الثلاثين سنة التي نشبت في ذاك العهد بين ملوك أوروبا لتكاثرت مساعيه بالنجاح ولتغير وجه الشرق وتاريخ العالم .

## الباب السابع

### نسطا

علاقات نخر الدين بدولة تسكانا كانت أوثق علاقاته السياسية والتجارية بدول أوروبا ،  
واخلصها وأوفرها فوائد .

١ — فردناند الأول — حاول فردناند الأول منذ السنة ١٦٠٢ أن يفتح في طرابلس  
البنانية سوقاً للمتوجات التस्कانية . فذهبت جهوده عبثاً لجشع  
ابن سيف . وفي السنة ١٦٠٥ أشار عليه المدعو رفايل كاتشيامارى Cacciamarì البندقى أن  
يحالف نخر الدين ، مؤكداً له أن صداقته مفتاح سوريا والقدس وقبرس ، التى كان الغراندوق  
يطمح اليها .

وفي السنة ١٦٠٦ لما عصى جانبولاد الدولة العثمانية واستولى على ولاية حلب أرسل  
الغراندوق اسطولا احتل ميناء أياس في شمال سوريا شداً لازره . ثم عقد معه معاهدة  
حربية وتجارية وجهز اسطوله لاحتلال ميناء فاماغوستا في جزيرة قبرس . ولما فاتح  
نخر الدين بمشروعه وعده الأمير ان هو نجح في احتلال ميناء فاماغوستا أن يساعده على  
ضم بقية الجزيرة اليه وعلى الاحتفاظ بها . لانه يعد جواره ضماناً لنفسه . فوافد الغراندوق  
اسطوله لاحتلال النخر المذكور إنما فشل لقلة استعداده . ولما غلب جانبولاد على أمره صحت  
عزيمة الغراندوق على ايفاد بعثة تعقد محالفة مع نخر الدين . فعمل في السنة ١٦٠٨ سفيره  
هيوبلست ليونسينى رسالتين للأمير وللبطريك المارونى واصحبهما بألف بندقية على سبيل  
الهدية . ومع أن الأمير كان قد اصطلح مع الباب العالي فقد استقبل البعثة ، تحت ستار  
مساومتها على ابتياع أسرى تسكانيين ، وعقد معها جلسة سرية صارحها فيه بعزمه على  
مواصلة سياسة العداء للدولة العثمانية ، وأكد مقدرته على احتلال دمشق والقدس . بيد انه  
طلب للاحتفاظ بهما أولاً لن يضع الغراندوق تحت تصرفه خيراً فى صب المدافع . ثانياً  
أن يستفك الأسرى التسكانيين الثلاثة لمعرفةهم التامة بقلاعه . وهى إذا جهزت بالذخائر



والمدافع والمؤن صمدت أمام جميع قوات الاتراك . ثالثاً أن يستصدر من الحبر الأعظم براءة يأمر فيها موارنة لبنان أن يحاربوا تحت لوائه . رابعاً أن يضع تحت تصرفه في ميناء صيدا مركبين يستخدمهما في تبادل البعثات والرسائل . خامساً أن يزوده بتذكرة مرور . ليتسنى له الركوب إلى تسكانا للاتفاق معه شفهاً على هذا المشروع الخطير . فلي الغراندوق مطالبه ووضع تحت تصرفه قسماً من اسطوله وفاز له من البابا بولس الخامس براءة حرض فيها الموارنة على المحاربة في جانبه .

وقد روى الرحالة سانديس الذي زار لبنان في السنة ١٦١٠ اشاعة استعداد السلطان لمعاقبة نفر الدين على عصيانهم وغزو جيرانهم ولاسيما على علائقة بعاهل فلورنسا التي انفضحت . لانه يسمح لاسطوله ومراكبه باللجوء إلى ميناء صور والتمون منها بالماء والزاد . واستطرد يقول « أن هناك مؤامرة خفية بين الأمير والغراندوق إذا عرف المسيحيون اغتنام فرصتها أصبحت الامبراطورية العثمانية بهزة عنيفة تفكك أو صالها » .

في السنة ١٦٠٩ التي توفي فيها فردناند الأول أرسل ولده قزما الثاني ٢ - قزما الثاني - وخلفه إلى الأمير اسطولا محملاً هدايا من البنادق ومعدات القلاع ومواد متفجرة وغير ذلك . مع رسالة أكد له فيها « نيته على مواصلة علائق الصداقة التي كانت تربطه بآبيه » .

وفي السنة ١٦١١ أوفد الأمير سفيره المطران جرجس مارون الأهدني إلى قزما ليحالفه على الدولة العثمانية .

وفي السنة ١٦١٣ لما ضايقته الحملة العثمانية برأ وبحراً رأى أن يتفادى محاربة السلطان فاقطع مع ذويه لاجئاً إلى قزما الثاني . فاستقبله بكل ترحاب وسعى له لدى الكرسي الرسولي ودولة فرنسا وملك اسبانيا ونائبه في صقلية ونابولي في تجهيز حملة تعيده إلى مملكته وتحتل الأراضي المقدسة وقبرس . وجهز مركباً أوسقه بالأسلحة والذخائر لتكوين جيشه وتشجيع ذويه للثبات على ولائهم ، مع بعثة فنية لاستكشاف قلاعه وموانئه ومقدراته . ولما عادت البعثة ورأى أن الخلاف بين عواهل أوربا يلهيهم عن مساعدة الأمير اظهر استعدادهم للقيام وحده بالحملة . فاشار عليه الأمير بالعدول عن المجازفة والاكتفاء بمركب يعيد فيه حاشيته إلى لبنان تخفيفاً عن كاهله . فعين له الغراندوق قصر أنخم في فلورنسا لنزوله مع أسرته ،

والتي سبكت راتباً شهرياً لنفقته ، وقدم له عربة وخيلاً لروحاته وجيئاته ونزهاته وعين  
للحاج كيوان مستشاره منزلاً في مونتيكاتني . ثم وضع تحت تصرف الأمير مركباً أعاد فيه  
اغلب حاشيته إلى لبنان مع كمية من الاسلحة والذخائر الحربية .

وفي صيف السنة ١٦١٥ لما عزم الأمير على الانتقال إلى صقلية ودعه الغراندوق  
وداعاً رقيقاً وأوصله بغلايينه حتى ميناء مسينا . وأوصى به حاكمها خيراً .

جنى فردناند الثاني ثمرة الخدمات التي قدمها جده ووالده للأمير  
٣ - فردناند الثاني - فامتازت علاقاته معه بتبادل متواصل من الرسائل والهدايا

والمنتوجات والبعثات في حقول التجارة والعمران والسياسة .

أولاً - العلاقات التجارية - توفي قزما الثاني سنة ١٦٢١ ولم يكن ابنه فردناند الثاني قد بلغ  
الحادية عشرة . فوضع تحت وصاية جدته الغراندوقة كرسطينا ارملة فردناند الأول بنت  
دوق لورينا ، ووالدته ماريا ارشيدوقة النمسا . وفي السنة ١٦٢٩ بينما كان مجلس الوصاية  
التسكاني يتحاشى الاشتراك في البعثة التي جهزها الكريدينال فرنسيس بربريني إلى لبنان ،  
زودت الغراندوقة تاجراً من رعاياها بتوصية إلى نحر الدين لتصرف بعض المنتوجات  
التسكانية واستجلاب القمح والحبوب التي كانت أوروبا بحاجة شديدة اليها لحرب الثلاثين  
سنة . فساعدته الأمير على شحن مركبين قحاً مع حظر الباب العالي استصدار الحبوب وسلمه  
ثلاث بالات حرير هدية للغراندوقة مرفقة برسالة كتب فيها « ان سروري بورود كتابك  
لا يفوقه سرور في هذه الدنيا . لو ان محصولي من القمح جاء كالسنين الماضية للمئات  
المركبين بلا ثمن » .

شجعت هذه المعاملة الحسنة تجاراً آخرين من التبعة التسكانية فاخذوا يقصدون الموانئ  
اللبنانية بمنتوجات بلادهم ، ويعودون منها بالحرير والزيت والقطن والحنطة والارز  
والقول ، وشق الحبوب .. واعطى مجلس الوصاية قيادة أحد المراكب للهدعو البارون  
دلاجره De la Legre ليتسنى له تحت ستار هذه الوظيفة الذهاب إلى لبنان والاياب منه  
لخدمة مصالح الفريقين ويكون همزة الوصل السياسية بينهما . وكتبت الغراندوقة للأمير  
تشكر له عنايته برعاياها واهدت اليه وإلى زوجته خاصكية التي كانت معه في تسكانا عدة تحف  
وأرسلت اليه أيضاً الارشيدوقة ارملة قزما الثاني علبة من العقاقير كان الأمير قد كلف



البارون شراءها له . فأجاب الأمير في ١٠ اذار ١٦٣٠ شاكراً على الهدايا وأهدى بدوره إلى السيدتين اثنتي عشرة بالة من الحرير اللبناني وكتب إلى الارشيدوقة يؤكد لها أن ذكرى زوجها قزما الثاني تحيا في قلبه إلى الأبد وأنه بغاية الاستعداد لخدمة مصالح ابنها « وفتحها برغبته في تعيين قنصل تسكاني لديه في صيدا » يستعين به على مجاوبة أفكارها ورغائبها .

فأوسق مجلس الوصاية خمسة مراكب بأصناف الأقشة والحرائر والأجواخ التسكانية مع كمية من البارود والرصاص والأسلحة ، ومبلغ من نقد ضرب برسم الغراندوقة لتصرفه في لبنان وسوريا بربح ٢٥ في المئة . وأصبح المراكب بغليونين لحمايتها . وعين القائد فرنسيس ده فراتسانو Da Verrazzano الذي كان في خدمة الأمير قنصلاً دائماً في صيدا . وأصبحه بسكية من الرصاص أهداها الغراندوق إلى الأمير وبسبعة طرود من شتى التحف قدمتها الغراندوقة .

فاستقبل الأمير القنصل بحفاوة وأنزله جناحاً من قصر ابنه على بصييدا وساعد على تصريف البضائع المرسلة بأسعار حسنة وعلى شحن المراكب قمحاً وأرزاً . وأرسل عشرين بالة من الحرير هدية إلى الغراندوقة وزوجاً من أصائل الخيل إلى الغراندوق منها حصان ألبسه عدة شرقية مزركشة بالقصب والحجارة الكريمة وأربعة من جياد الكلاب إلى الارشيدوقة التي كانت مولعة بالصيد .

وكتب يطلب خبراء يستعين بهم على الأعمال العمرانية التي ينوي القيام بها . أي طبيباً ماهراً له ولأسرته . ومهندساً يحق بناء الجسور والقلاع ، مصحوباً بنجار مختص بهذا الفن . ومهندساً للرّي والقناطر ، ونحاتاً لخرقة السبل والبرك . وخبازاً يدرّب العسكر على عمل البقساط . ويضع أسر من الفلاحين ليديروا شعبه على طرق الزراعة الفضية مع ما يلزمها من بقر وأدوات . وكلف وكيله ليونسيني شراء أربع بقرات وثوراً من الجنس التسكاني الممتاز لتحسين نسل البقر اللبناني . وأخذ على عهده اسكانهم وحمايتهم وتقديم الرواتب التي تعينها الأسرة المالكة لكل منهم . فضلاً عن كاهن يخدمهم في الروحانيات .

وطلب سرّاً كمية وافرة من أسلحة المشاة والخيالة . وقارباً لاثنين يخدمه عشرة بحارة ليهرب بأمواله إلى تسكانا عند الضرورة . وسلم الوكيل المذكور قائمة بالبضائع التسكانية

التي تروج في لبنان وسوريا ، وأخرى بالبضائع اللبنانية التي يصاح تصديرها إلى إيطاليا .  
فاهتمت الاسرة بتلبية مطالبه .

وفي السنة ١٦٣١ أوفد الأمير الشماس ابراهيم الحاقلاقي العالم الشهير بخمس وأربعين  
بالة حرير وأمره بأن يقدم واحدة منها إلى الكردينال مديشي Medici لقاء مكتب جميل  
قدمه المذكور له ، وأن يبيع البقية بمعرفة الغراندوقة ويودع ثمنها في مصرف الرحمة  
Mont de piété بفلورنسا باسمه وباسم أولاده الثلاثة الصغار ، فساعدت الغراندوقة الحاقلاقي  
على اتمام مهمته .

ثانياً — الاعمال العمرانية : لا شك أن أميرنا مدين بتربيته الفنية إلى روائع الهندسة  
والنحت والتصوير التي شاهدها في أثناء اقامته في إيطاليا ، لا سيما في فلورنسا . فتأثيرها فيه  
باد في الوصف الذي أودعه رحلته المنشورة في الخالدي . وقد باعته حملة السنة ١٦٣٣ وهو  
غارق في مشاريعه العمرانية العظيمة من هندسية وزراعية وصناعية . لأن الفنانين التسكانيين  
وصلوا إلى لبنان في السنة ١٦٣١ وغادروه في السنة ١٦٣٣ التي جاءت فيها الحملة المذكورة  
وقد أكد لنا الرحالة ماجري Magri « أن الايطاليين شيدوا قصر الأمير الفخم في بيروت  
على الطراز الايطالي ، مع الجنائن والاسطبلات وأقفاص الوحوش اللائحة به » . ووصف  
السياح الذين زاروا هذا القصر بأنه « من عجائب الشرق » وبقيت اسطبلات القصر الشهيرة  
وقسم من الدار المشيدة فوقها قائمة إلى السنة ١٩٣٣ . فأزيلت .

وقد كتبنا آنثذ في مجلتنا « كلما مررنا بهذا الاثر الجميل لا تتمالك من التأثر لرؤية العقود  
البديعة ، التي شاهدت عظمة أعظم أمير لبناني ، تهدمها يد الجهل لتقيم مكانها الاعمدة المسلحة .  
فنشعر أن مجد لبنان وجماله وجلاله يسقط أمام المدينة الحاضرة النفعية ، التي لا مجد لها  
ولا جمال ولا جلال » .

ومن آثار البعثة التسكانية المشرع أو سبيل الماء الذي أقامه نجر الدين في بيروت تخليداً  
لذكرى كته زوجة الأمير علي وقد اختطفها المنية في ريعان الصبا . وصفه الرحالة موندريل  
Maundrell « بأبداع ما شاهده في الامبراطورية العثمانية » . وقد أدخلت هذه البعثة إلى  
بيروت ، قالى الجبل وإلى الشرق هندسة واجهات المنازل الزجاجية المرتكزة على أعمدة



وأقواس رشيقة والمفتوحة على صحن الدار لتقوينها بهواء البحر البليل صيفاً ، وبأشعة الشمس الدافئة شتاء . وهي تشاهد حتى اليوم في البيوت الكبيرة القديمة .

ونظمت أيضاً هذه البعثة داخل الدار . فنسقت الغرف وجعلتها مستقلة مفتوحة على فناء واسع لراحة أفراد المنزل .

ومن أثارها برج الكشف الذي أقامه الأمير سنة ١٦٣٢ على زاوية قصره ليكشف منه الجوار والبحار . جعل ارتفاعه ستين قدماً وسمك جدرانها اثني عشر بما يدل على أنه كان ينوى تعليته . وقد أعطى اسمه لساحة البرج . وقد كلف الأمير المهندس التسكاني فاني Fagni بناء جسر نهر الأولى بقرب صيدا . فجعله عقداً واحداً ، فأصبح من عجائب الهندسة في ذلك العصر . وحضر الأمير نفسه وضع الحجر الأول من أساسه فأخفى فيه قطعة من النقود الذهبية المنقوشة برسم صديقه الغراندوق قزما الثاني .

ومن أعمال هؤلاء المهندسين إعادة القناطر التي كانت تحمل جسر نهر الكلب ، وترميم جسر نهر بيروت وبناء حصن وخان قبلي نهر القاسمية وإصلاح قصر صيدا الصليبي وترميم خان الفرنج في هذه المدينة .

وتنسيق حرج الصنوبر في بيروت . فأصبحت أشجاره صفوفاً منظمة تراها خطوطاً مستقيمة من أي جهة جئتها . هذه الغاية الطريقة الأنيقة ، المنبسطة على أقدام الجبل ، ما زالت حتى اليوم ذكراً حياً نضراً عاطراً للعلاقات الطيبة النافعة بين تسكانا وهذا الجبل الشيخ والقي معاً ، الذي تغنت به الأسفار المقدسة كمثل أعلى للجمال الكامل الخالد .

ثالثاً — العلاقات السياسية : لم تكن هذه المشاغل لتلهي الأمير عن مشروعه العزيز على قلبه الرامي إلى إحلال حلقاته الأوربيين بجانبه في القدس وبقرية في قبرس بعد أن أحل مرسلهم في مملكته واستدرج تجارهم ومراكبهم إلى موانئه . وقد أشرنا سابقاً إلى علاقاته السياسية بفردناند الأول وبابنه قزما . فنقتصر هنا على كلمة سريعة في علاقاته السياسية بحفيده فردناند الثاني .

ففي السنة ١٦٢٤ كان قد أتم الوحدة اللبنانية وأصبح سيد سوريا وفلسطين . ففتح بنياته دولة تسكانا وهذه عمدت إلى جمع المعلومات عن بلاده وخاصة عن مدينة صور

ومينائها الممتاز . فالرسم والتقرير الموضوعان في تلك السنة والمنشوران في الجزء الأول من كتابنا يدلان على أن الأمير قد عينها مركزاً للحملة التوسعية

وفي السنة ١٦٢٥ لما أوفد أوربانس الثامن الأب توما نوفارا P. Tommaso da Novara إلى فلورنسا للاتفاق على الحملة شهد الغراندوق بفخر الدين «أنه أمير باسل حكيم . فما عرضه جدير بأن يؤخذ بعين الاعتبار» .

وفي السنة ١٦٣٠ أرسل الغراندوق إلى الأمير ، نزولا عند طلبه ، رسمي قلعتي نيجا والشقيف ، ووعدته أيضا برسوم قلعتي بانياس والمغارة استعداداً لترميمها فضلاً عن رسم ميناء صور .

وأفادنا الأب روجيه Roger أن الأمير عقد مع الغراندوق محالفة تعهد فيها هذا بأن ينجده ستة آلاف مقاتل قديرين على القتال . ولما انفجرت حرب الليمونت Piemonte اضطر الغراندوق أن يرسلهم إلى ملك أسبانيا على أن يوفدهم بعد انتهاء هذه الحرب لتسلم حصون بيروت وصيدا وصور واحتلال بعض الأراضي اللبنانية . إنما أوفد حالا بعثة من المهندسين والخبراء الحربيين والخبازين مع كمية من المفرقات والمدافع . فقصوا سنتين في تحصين القلاع وتجهيزها بما يلزم من المؤن والذخائر .

وكان الأمير قد وجد طريقة لاحتلال القدس دون مقاومة لأن سنجتها وعده بتسليمها يداً بيد .

\*\*\*

لا شك أن اقدام ثغر الدين على هذا المشروع الخطير والسعي في انجازه مدة ثلاثين سنة يعد من أعظم مفاخره . حاول أولاً الاتفاق عليه مع ملكي اسبانيا وفرنسا ومع عوالم تسكانا ومع الكرسي الرسولي وفرسان مالطة . ولما رأى أعراضهم عنه حصر آماله في دولتي تسكانا والكرسي الرسولي . واكتفى منهما بستة آلاف محارب يضبطون قلاع الساحلية ، وبخمسين مركبا تحتل قبرص وتحمي شواطئه من هجمات الاسطول العثماني . وكان واثقاً بأن يصمد في البر وحده أمام جميع القوات العثمانية . صرح بذلك في السنة ١٦٠٨ وأقام



عليه البرهان فعلا في السنة ١٦١٣ لما ردت قلاع وجيشه أربعة وثمانين ألفاً بقيادة أحمد باشا الحافظ .

فشرعه إذا مع خطورته لم يكن ضرباً من الأوهام . لأنه استطاع وحده ، دون مساعد أجنبي ، أن يوحد لبنان وان يضم إليه سوريا وفلسطين وشرق الأردن وجزءاً من الأناضول وأصبحت أورشليم في متناول يده . فان دفع برأسه ثمن جرأته لم يكن الذنب ذنبه . لو شاء أمراء أوروبا لسلهم القدس يدأ بيد وأعاد المدنية المسيحية إلى الشرق مزدهرة ، ووفر على رعايا الدولة العثمانية المسيحيين ثلاثة قرون من الاضطهادات والمذابح ، وعلى الانسانية صفحات مخجلة من التعصب والظلم والهمجية .

ومع ذلك فعمله لم يمت معه . فقد ضمن لأسرته وانبائته الحكم أكثر من قرنين ، وللبنان وحدته واستقلاله ، ولشعبه الراحة والرفاهية والنهضة القومية والثروة التجارية والزراعية والصناعية . فأصبح لبنان حصن الحرية والاستقلال في الشرق ومنارة ثقافته ومبعثاً لنهضته الحاضرة .

كان اذن نخر الدين عظيماً بأخلاقه وإدارته وسياسته فكاتب لاسمه الخلود

نحر أسقف بولس قرالى

مصر الجديدة في ٧ نيسان ١٩٤٩









CA:956.9:K182LA:c.1

قرألى بولس (الخوري)

لبنان والدولة العثمانية في عهد فخر ال

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01066899

American University of Beirut



CA

956.9

K182LA

General Library



CA  
956.9  
K1821A  
C.1